مكتبة ياسمين

رواية

نغوجي واثيونغو

النهر الفاصل

ترجمة: عبد الله صخي

نغوجي واثيونغو (جيمس نغوجي) كاتب كيني. ولد عام 1928 في «ميرو» بالإقليم الأوسط، قرب نايروبي. في السادسة من عمره دخل إحدى مدارس البعثة التبشيرية. ثم مدرسة «غيكويو» حيث استمر حتى عام 1955، ما عدا الفترة الواقعة بين 1948 - 1950 إذ توقفت الدراسة في جميع أنحاء كينيا إثر نشوب ثورة «الماوماو» ضد الاستعمار البريطاني.

في عام 1955 التحق بمدرسة «اليانس» العليا. وفي عام 1959 انتقل إلى جامعة ماكيريري في «كمبالا» عاصمة أوغندا. وبعد تخرجه عام 1964 عمل في جريدة يومية تصدر في نايروبي. بعد ذلك سافر إلى بريطانيا لإكمال دراسته في جامعة «ليدز». في عام 1967 عاد إلى وطنه ليعمل محاضراً في جامعة نايروبي. ثم رئيساً لقسم الأدب في الجامعة ذاتها.

وها نحن نقدّم روايته الرابعة «النهر الفاصل». حيث يواصل فيها مسعاه في معالجة قضايا شعبه، وموقفه من التراث الديني والأخلاقي، ومعركته ضد الاستعمار.

في هذه الرواية يحرص واثيونغو على أن يعرض لنا صورة واقعية للصراع في معانيه المتعدِّدة. لذلك يلجأ إلى استعارة الكثير من الرموز التاريخية، الإفريقية والمسيحية، ويوظّفها في نسيج فنّي حيّ.

«واياكي» بطل الرواية، الشاب، ليس بطلاً أسطورياً كما يبدو، بل هو بطلٌ واقعي، نشأ في ريف غيكويو الذي يتعرّض للغزو والانتهاك. إنه سليل شخصيات ذات شأن مهمّ في التاريخ الإنساني لإحدى القبائل الكينية. شخصيات قاومت الظلم والاستبداد. لذلك ينهض «واياكي» بمهمة مقاومة المستوطنين البيض الذين قدموا إلى كينيا «بملابس كالفراشات». فيشرع واياكي في إجراء حركة تجديد فتية، تتجاوز القبلية والإقليمية والعنصرية، وتعتمد على الثقافة والتعليم كسلاح في مواجهة الاستعمار والتخلف والقهر والاستلاب. حركة تستلزم التعاضد والتكاتف والوحدة في وقت تتبعثر فيه الجهود بالنزاعات والانقسامات، تلك التي تضاعف الهوّة القائمة بين جماعتين من قبيلة واحدة، ومع ذلك يظلّ هدف البطل الأسمى: التعليم، الوحدة، الحرية السياسية.

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

نغوجي واثيونغو

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

النهر الفاصل

ترجمة : عبد الله صخي

روايـــة

Author: **Ngugi Wa Thiong'o** — اسم المؤلف: نغوجي واثيونغو

Title: **THE RIVER BETWEEN** — عنوان الكتاب: النهر الفاصل

Translated by: **Abdullah Sakhi** — ترجمة: عبد الله صخي

Cover Designed by: **Majed Al–Majedy** — تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al–Mada** — الناشر: دار المدى

First Edition: **2019** — الطبعة الأولى: **2019**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Ngugi wa Thiong'o 1965

This translation of The River Between is published by arrangement with Pearson Education Limited.

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

عن الروائي والرواية

نغوجي واثيونغو (جيمس نغوجي) كاتب كيني. ولد عام 1928 في «ميرو» بالإقليم الأوسط، قرب نايروبي. في السادسة من عمره دخل إحدى مدارس البعثة التبشيرية. ثم مدرسة «غيكويو» حيث استمر حتى عام 1955، ما عدا الفترة الواقعة بين 1948 – 1950 إذ توقفت الدراسة في جميع أنحاء كينيا إثر نشوب ثورة «الماوماو» ضد الاستعمار البريطاني.

في عام 1955 التحق بمدرسة «اليانس» العليا. وفي عام 1959 انتقل إلى جامعة ماكيريري في «كمبالا» عاصمة أوغندا. وبعد تخرجه عام 1964 عمل في جريدة يومية تصدر في نايروبي. بعد ذلك سافر إلى بريطانيا لإكمال دراسته في جامعة «ليدز». في عام 1967 عاد إلى وطنه ليعمل محاضراً في جامعة نايروبي. ثم رئيساً لقسم الأدب في الجامعة ذاتها.

اشتهر نغوجي برواياته: «لا تبكِ أيها الطفل»، «حبة قمح»، «تويجات الدم»، و«النهر الفاصل». ونال عليها جوائز أدبية عديدة. يعتبر واثيونغو واحداً من كتّاب كينيا الطليعيِّين الذين قدموا إسهاماً متميزاً للأدب الإفريقي. ترجمت أعماله إلى الكثير من اللغات، بينها العربية، التي صدرت فيها ثلاثٌ من رواياته: «لا تبكِ أيها الطفل»، «حبة قمح»، و«تويجات الدم».

وها نحن نقدّم روايته الرابعة «النهر الفاصل». حيث يواصل فيها مسعاه في معالجة قضايا شعبه، وموقفه من التراث الديني والأخلاقي، ومعركته ضد الاستعمار.

في هذه الرواية يحرص واثيونغو على أن يعرض لنا صورة واقعية للصراع في معانيه المتعدِّدة. لذلك يلجأ إلى استعارة الكثير من الرموز التاريخية، الإفريقية والمسيحية، ويوظّفها في نسيج فنّي حيّ.

«واياكي» بطل الرواية، الشاب، ليس بطلاً أسطورياً كما يبدو، بل هو بطلٌ واقعي، نشأ في ريف غيكويو الذي يتعرّض للغزو والانتهاك. إنه سليل شخصيات ذات شأن مهمّ في التاريخ الإنساني لإحدى القبائل الكينية. شخصيات قاومت الظلم والاستبداد. لذلك ينهض «واياكي» بمهمة مقاومة المستوطنين البيض الذين قدموا إلى كينيا «بملابس كالفراشات». فيشرع واياكي في إجراء حركة تجديد فتية، تتجاوز القبلية والإقليمية والعنصرية، وتعتمد على الثقافة والتعليم كسلاح في مواجهة الاستعمار والتخلف والقهر والاستلاب. حركة تستلزم التعاضد والتكاتف والوحدة في وقت تتبعثر فيه الجهود بالنزاعات والانقسامات، تلك التي تضاعف الهوّة القائمة بين جماعتين من قبيلة واحدة، ومع ذلك يظلّ هدف البطل الأسمى: التعليم، الوحدة، الحرية السياسية.

المترجم

الفصل الأول

كانت هناك سلسلتان متقابلتان من التلال، تسمَّى الأولى كامينو، والثانية ماكويو. وبينهما وادٍ يدعى وادي الحياة. خلف كامينو وماكويو الكثير من الوديان والتلال التي تستلقي دون أية خارطة تميزها عن بعضها. إنها تشبه أُسوداً نامت ولم تستيقظ بعد، نامت نوماً عميقاً كنوم خالقها.

ثَمَّة نهرٌ يجري في وادي الحياة. ولو لم يكن هناك أدغال وأشجار كثيفة تغطي منحدرات التلال، لكان بمقدورك أن ترى النهر حين تقف على قمة كامينو أو قمة ماكويو. لكنك لا تستطيع أن ترى مدى النهر كله حتى إذا هبطت إلى الأسفل. كان النهر رشيقاً، يشقُّ طريقه في عمق الوادي بهدوءٍ كأفعى. إنه نهر هونيا، الكلمة التي تعني: الشافي، أو الذي يعيد الحياة. ونهر هونيا لم يجف أبداً، كان يبدو ممتلكاً إرادةً قوية للحياة، وكان يزدري الجفاف وتغيرات الطقس. إنه يمضي متدفقاً بنسق واحد، لا يسرع ولا يتمهّل، لذا ظلّ الناس يرون ذلك ويبتهجون.

كان هونيا يمثل روح كامينو وماكويو التي وحدتهما معاً. إنه نهر الحياة الذي وحّد أيضاً الرجال والماشية والحيوانات البرية والأشجار.

حين تقف في الوادي فإن سلسلتي التلال تكفان عن أن تكونا أُسوداً نائمة وحَّدَها نبعُ حياتها المشترك. إنهما تصبحان عدوّتين. وبوسعك أن تكتشف ذلك ليس من خلال أيّ شيء ملموس بل من

خلال الموقع الذي تقابل فيه إحداهما الأخرى، والذي يجعلهما مثل متنافسين يتهيَّأان للقتال، قتال الموت والحياة من أجل زعامة هذه المنطقة المنعزلة.

في تل ماكويو، وفي زمنٍ موغلٍ في القِدم، ظهر رجلٌ زعم أن غيكويو، مؤسس القبيلة، وزوجته مومبي أقاما هناك مع مورنغو، إله الأجداد، وهما في طريقهما إلى مو كوروووي واغاتانغا، ونتيجة لتلك الإقامة - قال الرجل - فإن الزعامة منحت إلى ماكويو. ولم يصدق ذلك جميع الناس. ألم تكن هناك دائماً همسة أو إشاعة تفيد أن غيكويو وزوجته مومبي قد توقَّفا في تلّ كامينو؟ ثم ألم يبرز تلٌّ صغير من الأرض التي وطِئتْها أقدامُهما في جنوب كامينو؟

يومها قال مورنغو لهما: «هذه الأرض أمنحها لكما، أيها الرجل، أيتها المرأة، إنها لكما لتحكماها، وتَفلحاها، أنتما وذرِّيَّتكما».

كانت خصبةً أرض ريف غيكويو[1] الممتدة من الأفق الذي يعانق السماء إلى الأفق المختفي في الغيوم. هكذا بدأت القصة في تلّ كامينو الذي أنيطت به الزعامة والمسؤولية الروحية.

ولكامينو دليلٌ واقعي لتأكيد هذه القصة. إنها أيكة مقدَّسة انبثقت من المكان الذي توقف فيه غيكويو ومومبي ذات يوم، والذي ما يزال الناس يقدمون له الولاء والعرفان. ولقد تيقَّن كلٌّ مَن كان يهمّه التعداد أن تلّ كامينو قد أنجب من الأبطال والقادة أكثر مما أنجب أيُّ تلٍّ آخر.

فموغو واكيبيرو، مُتنبّئ غيكويو العظيم في ذلك الزمن الغابر قد ولد في كامينو وشبَّ في أديمه. كان يرى رؤىً مستقبلية ثم يرويها للناس الذين يأتون لمشاهدته والاستماع إليه. غير أن عدداً قليلاً منهم، أكثر سخرية من جيرانهم ما كانوا يذهبون إليه، إذ اعتبروه دجّالاً. وذات ليلة

---

1 - منذ زمن بعيد، وتيمّناً باسم مؤسس القبيلة، غيكويو، سميت تلك المنطقة باسم (ريف غيكويو)، وهي تقع وسط كينيا. ومقسمة إلى خمس مقاطعات إدارية صغيرة هي: نايبري، كيامبو، مورانغا، إيمبو، ميرو - المترجم.

حين كان الناس نائمين اختفى من التلال. بعدها سمع صوته في الأراضي الواقعة خلف التلال، في نابيري، وكيامبو، ومورانغا. والحق أنه سمع في جميع مناطق ريف غيكويو، حيث استمرّ معلناً نبوءته بصوتٍ عالٍ. كان يصيح: «سيأتي أناسٌ بملابس كالفراشات».

وكان يقصد بذلك: الرجال البيض.

وهناك الساحر العظيم كاميري، الذي أدهش بتكهُّنه حتى الرجال البيض في مورانغا. وقد أكسبه سحره وتنبُّؤه شهرةً مدوّية قبل أن يسيطر عليه الرجال البيض بالهدايا والابتسامات.

وقالوا أيضاً إن كاميري ولد في كامينو، لكنه مثل موغو الذي قبله، اختفى من التلال، وغادر إلى المناطق التي تقع في ما وراء الريف، إذ سَئِم الحياة الضيقة في التلال.

ثم واتشيوري، المحارب العظيم الذي قاد القبيلة كلّها ضد قبيلَتَي أوكابي وماساس، ويروي أنه حين كان شاباً قتل أسداً. وحين توفي على يد رجلٍ أبيضَ ضالّ تركَ اسماً عظيماً محبوباً من جميع المحاربين الفتيان.

كانت التلال منعزلة. للناس فيها حياة خاصة. لا يقلقها ما يحدث بعيداً عنها أو خلفها، وليس ثَمَّة ما يخشاه الرجال والنساء، فأفراد قبيلة أوكابي لن يجيئوا إلى هنا، وإذا جاؤوا فسيضلّون الطريق بين التلال والهضاب والوديان. حتى إذا كانوا من ريف غيكويو، أمّا إذا كانوا من مناطق مثل نايبري أو كيامبو فلا يستطيعون معرفة طريقهم جيداً بين التلال. وهكذا غدا الريف الذي يضم مجموعة من التلال وحيداً، لا يتأثر بالقوى الهائجة التي تأتي من الخارج.

كانت السلاسل تشكل قلب وروح الأرض، إذ حافظت على سحر وطقوس القبائل، وأبقتها نقية، سليمة. وكان ساكنوها يبتهجون معاً، يمنحون لبعضهم حرارة ودفء مرحهم. أحياناً كانوا يتقاتلون، لكنهم يتقاتلون فيما بينهم، ولا حاجة لأن يعرف الغريب ذلك، فهم أمامه

يصمتون، ولا يهمسون بأيٍّ من أسرارهم التي يحرسونها. كانوا يتداولون مثلاً سائراً يقول: «مشمَّع البيت لم يوضع كي يحتك به جلدُ الغرباء».

زعماء الأرض نهضوا من هناك. ورغم أن التلال كانت منعزلة، إلا أن الذين غادروها كانوا قليلين، هم أولئك الذين امتلكوا الشجاعة، للتطلع إلى أبعد من رضاهم الحالي، إلى حياة وأراضي الآخرين. أولئك كانوا النخبة التي اصطفاها الإله مورنغو وأرسلها لإنقاذ أناسٍ في ساعةِ حاجة؛ إنهم: موغو المتنبِّئ العظيم، واتشيوري المحارب المجيد، وكاميري الساحر المقتدِر.

لقد أصبحوا غرباء عن التلال. ومنذ ذلك الحين لم يعد مشمَّع البيت لهم. إنما لأولئك الذين يعيشون في الداخل، أولئك الناس الذين تنطق دماؤهم وعظامهم بلغة التلال.

كانت الأشجار تصغي، تتأوَّه مع الريح وتصمت، وكانت الطيور والحيوانات البرية تصغي بسكونٍ تام، لكنها أحياناً كانت تستجيب بإطراءٍ مرح أو بزئيرٍ غاضب.

***

الفصل الثاني

الآن أصبحت التلال والهضاب في الخلف. فهذا هو السهل، الامتداد المنبسط الوحيد في الريف. وإذا ضيّقتَ عينيك محدّقاً في المدى الغائم فسيكون بوسعك رؤية أرض قبيلة أوكابي. كان كل شيء مسالماً في هذا السهل الذي قيل إنه كان ميدان قتال في يوم ما. ثَمَّة أبقار قليلة كانت تقتلع الحشائش وتمضغها، بينما ربضت أبقار أخرى تحدّق ببلادة في المكان من حولها وتلوك ما في أفواهها.

فجأةً، ظهر فَتيَان من الدغل وأخذا يتشاجران. كان الأول طويلاً، وعنقه طويلاً أيضاً، غير اعتيادي. أطرافه الأخرى كانت كذلك، لذا بدا أكبر من عمره الحقيقي. إنه كاماو بن كابوني، من تل ماكويو. وكان الثاني واسمه كنوثيا، أقصر من الأول، ذا عضلات قوية على نحو مدهش. عيناه واسعتان باردتان، تناسبان تماماً جبينه الأملس. إنه يعيش مع عمّه في قريةٍ خلف سلسلتَي التلال، بعيداً عن ماكويو، إذ إنّ والده مات في وقت مبكر.

في البدء تقاتل الفَتيَان بالعصي التي اقتطعاها من الدغل. إلا أنها كانت خضراء طرية فتهشمت وأصبحت قطعاً صغيرة من فرط تقاطعها العنيف مع بعضها في الهواء عدة مرات. رمياها بعيداً عنهما، سقطت إحداها على بقرة، فنهضت مسرعة خائفة. وعلى بعد خطوات قليلة منهما توقفت موقظةً بقرتين أخريين في طريقها. وراحت تنظر في الاتجاه المعاكس دون أن تبالي بالمعركة التي استمرّت على مقربةٍ منها.

أخذ الفَتيَان يتصارعان، تشابكت أيديهما، حاول كلٌّ منهما أن يطرح

الآخر على الأرض أكثر من مرة، غير أنَّ أياً منهما لم يحرز تقدماً على الآخر. جهد كنوثيا أن يرفع كاماو عن الأرض ليسقطه بساقه اليمنى إلا إنَّه فشل في كلّ مرة. ذلك أن كاماو كان يكافح أيضاً. ورغم أنه لم يكن ثرثاراً إلا أنه اليوم راح يهدّد بطلاقة.

– ستعرف من أنا – حذّر كاماو وهو يستخدم ركبته اليمنى لضرب كنوثيا في بطنه.

– يا بقرة – صرخ كنوثيا بألم.

– يا ضبع – ردّ كاماو.

– حتى أنت – فحَّ كنوثيا متراجعاً إلى الخلف، وقد بدا متماسكاً للحد الذي كان بوسع أي مراقب أن يفكر بأنه سيفوز. غير أنّه تعثر بحجر حاد فسقط منبطحاً فوق بطنه. عندها انحنى كاماو عليه، وثبّت يدي كنوثيا خلف رأسه. كان وجهه شرساً ومتجعداً بعنف وهو يستخدم رأسه لضرب وجه كنوثيا الذي بدأ ينزف من أنفه ويتألم. كانت ساقاه ترفسان في الهواء، على أمل أن تمسكا برقبة كاماو. إلا أن الضربات تواصلت فأربكته، ولم يعد يعرف متى وأين ستقع الضربة التالية.

أدارت البقرات التي ابتعدت رؤوسها وراقبت المعركة لبرهة قصيرة. ثم أحنت رؤوسها وأخرجت ألسنتها لتقتلع وتمضغ الحشائش كالأخريات.

تلك اللحظة هبَّ فتىً آخر راكضاً. شقّ طريقه بين قطيع من الأبقار على مبعدة، وصرخ متقطّع الأنفاس وهو يقف قربهما:

– كفّا عن القتال.

وعلى الفور توقف كاماو، إلا أنه ظلّ رابضاً فوق كنوثيا.

– لماذا تتقاتلان؟

– لقد شتمني – أجاب كاماو.

– كذّاب. سخر مني لأن أبي توفي وهو فقير، و...

– قال إن أبي أصبح مع الرجل الأبيض – احتجَّ كاماو.

- إنه...
- أنت شحّاذ - صاح كاماو.
- إنه عبدٌ للرجل الأبيض - أكمل كنوثيا.
- أنت... أنت...

غضب كاماو، واهتاج، وهمَّ بالانقضاض على كنوثيا الذي نظر إلى الفتى القادم للتوّ متوسِّلاً.

- رجاءً، كفَّ عن هذا يا كاماو. ألم نُقسِمْ نحنُ أبناء التلال على أننا رفاق؟ - أحسَّ الفتى القادم للتو باليأس إذ إنّهم قبل ثلاثة أيام فقط أقسموا على أن يكونوا إخوة.

وتساءل كاماو.

- كيف أهتمّ لرفاق يهينون أبي؟
- سأفعل ذلك ثانية - أجاب كنوثيا بسرعة من بين دموعه.
- افعلْ الآن.
- سأفعل.
- حاولْ.

وأخذا يتنازعان من جديد. وانتاب الفتى الذي قدم من بين الأبقار إحساسٌ لا يقاوم بأن ينقضّ على كاماو. فاقتلع ورقة عشب وراح يلوكها بسرعة. واتسعت حدقتاه بالغضب والخوف. وصرخ بعنف:

- كاماو.

وبعثَ الارتجافُ في صوته رعشةَ خوفٍ في قلب كاماو، الذي رفع رأسه في الحال، فالتقت عيناه بعيني الفتى المتَّقدتَين المحدقتَين به. عندها أطاع كاماو الأمر المكتوم خانعاً. إلا أن وجهه اصطبغ بظل أكثر عتمة عما كان. وانسل يجلّلُه إحساسٌ بالإهانة والكراهية لنفسه بسبب استسلامه. نهض كنوثيا متأرجحاً، ونظر إلى الفتى شاكراً. استمر الفتى خافضاً رأسه، محدقاً في بقعة واحدة. ذلك أن نشوة الفخر والانتصار

التي تملكته عندما امتثل له كاماو قد خمدت فجأة، وتحولت إلى إحساس بالأسى لما أقدم عليه. وربما كان يسرُّه لو أن كاماو تمرَّد عليه. واستخدم القوّة لإبعاده.

كان اسم الفتى هو واياكي، الابن الوحيد لتشيغي. إنه أصغر سناً من كاماو وكنوثيا. ولم يكن قد اجتاز ولادته الثانية بعد. لكنه مع ذلك كان أطول من الفتيان الذين في سنِّه. كانت بنيته قوية، وجسده نشيطاً، وشعره جافاً وخشناً، وبفتلات تنتهي بحد مرسوم على جبينه. وثَمَّة فوق عينه اليسرى أثرٌ لجرحٍ منحنٍ خفيف سببته له ضربة ماعز برية. كانت الماعز تركض خلف أحَد الأولاد الرُّعاة. وإذ شاهد واياكي ذلك تناول عصا وهرع خلفها صائحاً. استدارت نحوه ونطحته بقرنيها. فأحدثت في جبينه جرحاً عميقاً. ساعتها وصل والده وأسعفه. ومنذ ذلك اليوم غدا واياكي بطلاً بين الأولاد رغم أنه ركض خلف الماعز من أجل المزاح والمتعة. لكن هذا لم يكن السبب الوحيد الذي يفسّر تبعية الأولاد والصبية والفتيان الفورية له.

كان والده تشيغي من الرجال الأكبر سناً المشهورين في تل كامينو. له الآن زوجة واحدة أنجبت له العديد من البنات وولداً واحداً. أما زوجتاه الأخريان فقد توفِّيتا أثناء المجاعة الكبيرة دون أن تنجبا أطفالاً.

كان قد سبق المجاعة حصادٌ وفير. تلاه هجوم الجراد والدود والجفاف الطويل، ليجلب الموت إلى الكثير من البشر. يومها نجا تشيغي بصعوبة. أما بناته فتزوّجن كلهن ما عدا واحدة ماتت في وقت مبكر. كان الرجال الأكبر سناً الآخرون يخافونه ويحترمونه، لأنه يعرف عادات الأرض وأشياء القبيلة الخفية أكثر مما يعرف سواه. كان يعرف معنى كل طقس، وكل إشارة، لذا كان في مقدمة أيّ طقسٍ ذي شأن.

حول تشيغي رويت الكثير من القصص. قال بعضهم إن لديه موهبة السحر. وقال بعضهم الآخر كان متنبِّئاً، حتى أن مورنغو، إله الأجداد، كان غالباً ما يتحدث إليه. وقالوا أيضاً إن بمقدوره أن يرى صور المستقبل

مثل موغو واكيبيرو الذي تنبأ منذ زمن سحيق بغزو الرجل الأبيض لريف غيكويو. وذهب بعضهم أبعد من ذلك، فقال إن تشيغي كان يتصل فعلاً بموغو، ولم يتأكد أيٌّ منهم. كما أن تشيغي نفسه لم يزعم ذلك، غير أنه أخذ يتكلم قليلاً، محتفظاً بأفكاره وتصوّراته لنفسه، منذ أن حذَّر الناس من مركز سيريانا التبشيري، ورفضوا الاستماع إليه. كان قد روى لأناس التلال ما حدث في مورانغا ونايبري وكيامبو. وروى لهم عن تومو تومو، وغيكويو، وليمورو، وكيجابي. لكنهم ارتابوا بما قاله:

- وكيف عرفت؟

- انظروا إليها، انظروا إلى الفراشات.

- الفراشات؟ أنت لم تغادر التلال!

- إنها هناك خلف التلال. بعضها يشيّد المنازل، وبعضها يستولي على الأرض.

- وكيف تمكَّنت من رؤية النور خلف التلال؟

- «حمقى، حمقى» - همهم في نفسه يائساً.

كانت نايروبي قد نشطت فيها الحياة قبل ذلك الحين. وأخذت القطارات تمرّ عبر الريف إلى تلك المناطق البعيدة التي لم يصلها أيٌّ من سكان التلال، خفضوا أصواتهم، وتهامسوا فيما بينهم:

- «لا يستطيع الرجل الأبيض أن يتكلّم لغة التلال».

- «ولا يعرف عادات الناس».

لكن الرجل الأبيض وصل إلى سيريانا، وحوَّل جوشوا وكابوني إلى الدين الجديد، فهجرا عادات التلال. واستمر الناس يهزّون أكتافهم استهجاناً، ثم مضوا يتهامسون:

«مَنْ يستطيع مِنْ الخارج أن يشق طريقه بين التلال؟».

وقتها كان تشيغي شاباً، أما اليوم فهو كهل. لكنه حين يتذكر شيئاً ما حدث في السنوات الماضية يشع ضوء في عينيه، وتبرق فيهما ومضة

أمل. ومنذ ذلك الحين احتفظ تشيغي بمعرفته لنفسه، ولم يعلنها إلا للرجل المناسب.

لم يُرد الفتيان أن يدركهم الظلام. لذا جمعوا قطيعهم على عجل معاً وعادوا باتجاه أكواخهم. ثَمَّة طرق عديدة تمر عبر الغابة، تؤدي إلى الأكواخ المختلفة المتناثرة فوق التلال. فإذا لم تكن منتبهاً فستضل طريقك بين التلال ببساطة. ذلك أن أي جزء من الغابة كثيراً ما يشبه الجزء الآخر، لكن الفتيان الذين ولدوا ونشأوا هناك كانوا يعرفون أسرار الطرقات.

كان الظلام يهبط شيئاً فشيئاً عندما وصل واياكي إلى البيت. كان والده ينتظره، دعاه إلى كوخه. جلس الأب على مقعد من دون مسند، واتّكأ على عمود الكوخ الوسطي. كانت النار تشتعل خفيضة في الموقد. حين دخل واياكي الكوخ، ووقف قرب الباب، تناول تشيغي عصا على مقربة منه وسعّر النار ببطء، فتطاير الشرر إلى الأعلى في متوالية متسارعة.

– لماذا تعود عند حلول الظلام؟ – سأله تشيغي أخيراً دون أن يرفع رأسه، وبصق على الأرض.

– أخذنا الأبقار إلى السهول.

– السهول؟

– نعم يا أبي.

وقال الأب بعد صمت قصير:

– إنه مكان بعيد.

لم يتكلم واياكي. إنه دائم الارتباك أمام والده. وقال الأب:

– الخطر يكمن في الظلام.

– نعم يا أبي.

أحسّ واياكي بالارتباك ثانية، ألقى نظرة سريعة على الباب. كان الأب ما يزال خافضاً رأسه. وسأل:

– من دلّك على الطريق؟

– أنا أعرف كل الطرق في التلال – أجاب متفاخراً كي يلغي إحساس والده بخوفه المكبوت عليه. إضافة إلى ذلك فإن واياكي لا يحب أن يرى نفسه فتىً، بل يحب أن يرى نفسه رجلاً قادراً على اتخاذ القرارات.

نظر تشيغي إلى ابنه. تأمّله برهة، حاول واياكي أن يخمّن ما يفكّر به والده. وعلى الفور خطر له أن والده كان قلقاً وخائفاً عليه، فطمأن قلبه شعورٌ بالفخر وتساءل في سرّه عمّا إذا كان الفتيان الآخرون، يفتخرون بأبٍ كأبيه.

– إذن، فأنت لم تأكل – رقَّ صوت تشيغي.

– لقد جئتُ الآن.

– اذهبْ إلى أمك واطلب منها طعاماً، فأنت جائع حتماً.

تحرَّك واياكي. وإذ أصبح على وشك الخروج من الكوخ، ناداه والده، وطلب منه أن يعود. ارتجف واياكي بعض الشيء.

– تذكّر يوم غدٍ هو يوم ولادتك الثانية.

– نعم يا أبي.

– لا تنس – قال تشيغي دونما حاجة لتأكيد.

هرع واياكي إلى كوخ أمّه. كيف يمكنه أن ينسى حدثاً كالولادة الثانية!

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل الثالث

ديمي وماثاثي، رجلان من عمالقة القبيلة، عاشا في زمن بعيد، في البدايات الأولى للزمن. كانا يقطعان الأشجار، وينظفان الغابات الكثيفة، استعداداً لفلاحتها. كانا يملكان الكثير من الأبقار والأغنام والماعز، ويقدمان القرابين إلى مورنغو، ويتصلان بأرواح الأجداد. كان واياكي قد سمع بابني القبيلة هذين. وافتخر بهما. وكم تمنّى أن يعرف ملامحهما وأوصافهما. لا بد أنهما كانا كبيرين وقويين للحد الذي تمكّنا فيه من مواجهة مخاطر الغابة بشجاعة.

أحياناً كان واياكي يلعب مع الفتية الآخرين لعبة ديمي وماثاثي. وذات يوم قال له أحدهم، من تل كوينا:

- لا يمكنك أن تكون ديمي.

- لماذا؟ - سأل واياكي. وكان الفتية يتحلقون حولهما.

- لأنكَّ لم تتهيَّأ للختان، لأنك لم تولد بعد ولادةً ثانية.

نظر واياكي إلى الأرض، وأحس أنه ما يزال صغيراً. عندها استدار نحو الفتية، وترك أشعة عينيه تسقط عليهم. كانت عينا واياكي واسعتين براقتين، حزينتين، متأملتين. ثَمَّة شعاع يسطع منهما، شعاع يبدو كما لو أنه يخرق جسدك، كما لو أنه يرى شيئاً ما خلفك، شيئاً ما في قلبك. ولا أحد من الرجال يعرف بأية لغة تنطقان. كل ما في الأمر أنه حين يحدق فيك عليك أن تطيع. كانت نظرته نصف متوسلة، نصف آمرة تبدو وكأنها تصرّ على تحقيق الشيء الذي تبغيه. وربما كان ذلك سبب طاعة الأولاد له. كانت أمه دائماً تحوِّل بصرها عنه عندما ينظر إليها.

وأشارت بعض النسوة والفتيات إلى أنه يجعلهن يشعرن بالخجل كلما نظر إليهن، لكن النسوة يشعرن دائماً بالخجل حين تلتقي عيونهن بعيون الرجال. واياكي لم يكن مدركاً لأي شيء غريب في عينيه، رغم أنه كان يحسّ أحياناً بشيء ما يستعر في داخله يدفعه لأن يقول أو يفعل أشياء جريئة.

ذلك اليوم شعر بالدافع يتأجج فيه، وللحظة اعتقد نفسه ديمي وقال:

- أنا ديمي.

وشاهد شجرة على مقربة منه؛ «انظر وسترى كيف أقطع تلك الشجرة». تناول فأساً واندفع ناحية الشجرة. وبوعي غائب انهال عليها بكل قوته حتى تحطمت عصا الفأس وغدت أجزاءً صغيرة، في البدء ضحك الفتيان منه، لكنهم سرعان ما تبعوه، واندفعوا مثله يقطعون الأشجار، وينظّفون الغابة، ويهيئونها للزراعة، تماماً كما فعل ديمي وماثاثي.

عاد واياكي إلى البيت وقال لأمه:

- يجب أن أولد من جديد.

ها هو يوم ولادته الثانية يأتي. عندما ارتفعت الشمس، وألقت أشعتها على الأرض والماعز المستلقي المنتشر إزاء الجدار، ذهب واياكي خلف الكوخ، وعرّض عنقه للأشعة. كان الدفء مبهجاً. أراد أن يكون سعيداً، سعيداً جداً. ألم يكن مقبلاً على تعلم العادات في تلك الأرض؟ ألم يكن مقبلاً على احتساء الطقس السحري للولادة الثانية؟ كان يدرك أنه يودّ أن يكون مثل أبيه، عارفاً بعادات الأرض كلها منذ زمن بعيد.

لكنه شعر بالاكتئاب. شيءٌ ما لم يستطع تحديده كان يقضم روحه، ويتسلَّل إلى لحمه. تمنَّى أن يصطحبه كاماو أو كنوثيا تلك اللحظة، واستمرّ يتمنّى ذلك.

حين لامست الشمس جلدَه تمسَّك بعضلاته بقوة، وأغلق عينيه محاولاً أن يستردّ إحساساً بالأهمية كان قد جرّبه أيام الانتظار، وكان

التوقُّع عذباً. الآن لم يعد يهمّه شيء. إذ ما إن ينقضي هذا اليوم حتى يكون مهيَّأً لأكبر الطقوس: الختان، الطقس الذي يعني اجتيازَه لمرحلة الطفولة، والدخول في عالم الرجال. عندها سوف يثبت شجاعته وروحه الرجولية.

خُمّرت كمّياتٌ كبيرةٌ من البيرة. وراح يتوافد كثيرٌ من الرجال الأكبر سناً... ثَمَّة اثنان منهم جاءا منذ الصباح الباكر، وها هما مشغولان بذبح مِعزى. ذلك أن جميع الحاضرين سوف يأكلون اللحم. وسوف تستحضر أرواح الأموات والأحياء لتسهم في الطقوس.

عادةً لا يستغرق الطقس وقتاً طويلاً. كما أنه ليس معقداً. هكذا تجلس أمه قرب الموقد في كوخها كما لو أنها تؤدي عملاً مألوفاً. يجلس واياكي بين فخذيها. يُقتطع حبل رقيق من المِعزى الذبيحة، ويربط إلى بطن أمه بمثابة الحبل السرّي، وتأتي عجوزٌ تمثّل القابلة فتقطع الحبل، ويبدأ الطفل بالصراخ أما المرأة التي تنتظر الوليد فتهتف بمرح:

«آلي – لي – لي – لي – لي – لي – ليي».

واياكي السابق يولد الآن.

يولد ثانية ليحمل النار القديمة.

نسي واياكي نفسه لبعض الوقت. وتخيّل ذاته ديمي، ينظف الغابة بشجاعة، وخلفه تعمل قبيلةٌ بأسرها. لكنه حين تلفَّت حوله ورأى العجائز يُحِطْنَ به، أخذَ يبكي ثانيةً مثل طفلٍ صغير. أحسَّ بألمِ الخوف في داخله. حاول أن يفتح عينيه على سعتهما. وللحظةٍ تملَّكَه إحساسٌ جنوني مفاجئ كوميض. إذ لم يتمكن من فتح عينيه، ارتجف وظن أنه يجفل من شيء بارد لم يجرِّبه من قبل. وراحت دموعه تتساقط على الأرض استمرت النسوة بالهتاف لكنه لم يعد يشاهدهن. كانت أصواتهن تأتي إليه مثل أزيزٍ بعيد، كذلك الذي سمعه في حلم، حين هاجمه سربٌ من النحل. ازداد بكاؤه، فخشي الناس عليه، فهذا ما لم يحدث من قبل.

في آخر النهار ذهبت أمه إلى الحقل. فتبعها. كان حليقَ الرأس. مشى خلفها مثل طفلٍ اعتاد أن يدرج خلف أمه. وعندما اتجهت نحو نهرِ هونيا تبعها أيضاً. هناكَ أغطسته في الماء، ثم خرج نظيفاً.

آوى إلى فراشه مبكراً. ألمٌ غريبٌ في أحشائه. كان ذلك كله تجربة غريبة عنه، وشعر بالفرح لانتهاء الطقس. وثمّة في مكان ما من داخله شعَّ إحساسٌ بالفخر، إذ أصبح مهيَّأً الآن للانتقال إلى عالم الرجال.

***

الفصل الرابع

عاد واياكي سريعاً إلى إيقاع الحياة اليومية في القرية. ساق القطيع واعتنى به. نظمّ الغارات، وخرج للصيد، وشارك في الرقصات التي كانت تقام من أجل الفتيان، وأحس بالفرح. كانت الأيام تمضي، والحياة تستمر بالوتيرة ذاتها. واحتفظت عيناه بنظراتهما القوية الثابتة، وقال بعض الناس إن هناك شيئاً ما شريراً في بريقهما. لكن والده كان له النوعُ ذاتُه من العيون، ففي الوقت الذي أخذ جسده يتشوَّه بالتجاعيد ظلَّت عيناه فتيتين، مفعمتين بالحياة.

ذات مساء، بعد أسابيع قليلة من ولادته الثانية، دعاه والده الذي كان يميل إلى الأحاديث في كوخه الخاص. دخل واياكي بهدوء تام، إنه غالباً ما يشعر بالارتباك في حضرة أبيه.

كان تشيغي جالساً في مكانه المعتاد قرب العمود الوسطي، بين الماعز والأغنام التي نامت معاً حوله باعثةً شخيراً خفيفاً. «اجلسْ»، قال تشيغي. وأشار إلى مقعد بأربع قوائم من دون مسند، جوار نعجة ضخمة كانت تنام قريباً جداً من الموقد. لكز واياكي النعجة في أضلاعها بقدمه اليسرى لعلّها تفسح له مكاناً يجلس فيه. لم تتحرك النعجة، فاضطر إلى الجلوس بجانبها.

– إلى أين ستأخذ الأبقار غداً؟

– إلى الوادي في نياما.

– هل سبق لك أن أخذتها إلى التلال في عمق جنوب كامينو؟ تكلم تشيغي ببطء. وبصوت قوي هادئ تشوبه ارتعاشة خفيفة.

- كلا - أجاب واياكي بعد توقف قصير جداً. حاول أن يتذكر المكان. وتساءل في سِرِّه عن سبب الأسئلة.

- هل سمعت بالأيكة المقدسة؟

- نعم، سمعنا عنها.

صمت تشيغي، وأقلق واياكي الفضول.

- اترك الأبقار والماعز لدى أمك، فغداً سنذهب إلى التلال.

ظلام في الخارج، نجوم قليلة انتشرت متباعدة في السماء. كان واياكي قلقاً. شعر أنه مهيَّأٌ للبدء بالرحلة الآن. ماذا سيفعلان هناك معاً؟ ماذا سيشاهدان؟ ذلك سرّ، سرّ رجل. ما الأشياء الخفية الأخرى التي كان والده يحملها في جسده الكهل؟ تمنى لو أنه حدّثه بالمزيد. لكنه سيعرف كل شيء غداً. وسيكون يوماً عظيماً، فالرحلة ذات شأن. ركض نحو كوخ أمه. جلس هناك، وأحس أنه كبير ومهمّ.

***

سارا سيراً مرهقاً. كان الطريق مجهولاً بالنسبة لواياكي، إذ لم يسبق له أن ذهب بعيداً على امتداد نهر هونيا، لكنه كان مطمئناً وهو يمضي خلف والده الذي قاده عبر متاهة من الأشواك الكثيفة والنباتات المتسلقة. كثيراً ما وقع في شرك النباتات والأشواك، وأحياناً كان يحرّر نفسه منها بصعوبة.

هدوء تام. لا يقطعه سوى ارتعاشات الماء التي كانت تصاحب وقع أقدامهما المنسابة، ومن حين لآخر كان تشيغي يتوقف كما لو أنه يسمع شيئاً. وكان واياكي يتوقف أيضاً لكنه لا يسمع أيَّ شيء.

ترك تشيغي لعابه يسيل على صدره. إنها طريقة قبيلة غيكويو في المباركة. ظن واياكي أن والده يبارك النهر، تبادلا كلمات قليلة. وإذا كان تشيغي يتوقف قرب شجرة أو أجمة معينة، كان واياكي يدرك أن والده يودّ أن يفسر له شيئاً.

- لحاء تلك الشجرة مفيد للجرح الجديد.

- جذور هذه النبتة مفيدة. حين تؤلمك بطنك، اغلِ بعضاً منها في الماء واشرب السائل.

وأحياناً يحذره من تلك الشجرة التي «تمتلئ ثمارها بالسم». شعر واياكي أنه قريب من والده كما لم يكن من قبل، وتوهج قلبه. ألم يشرب من يقطينة الثقة والمسؤولية؟ حقاً كان واياكي ناضجاً، وها هي أشياء التلال الخفية قد بدأت تتكشف أمامه.

اجتازا الوادي. وأخذا يتسلّقان المنحدرات مارَّين بحجرٍ هنا، وشجرةٍ هناك. كان واياكي مندهشاً من أبيه الذي بدا محافظاً على توازن سيره، بينما هو يركض لاهثاً. وهما في طريقهما أفزعا ظبياً من مكانه الخفي، فوثب مذعوراً. كان واياكي يحب الظباء، ويحس دائماً برغبة لأن يلمس أجسادها الملساء الناعمة.

- الظباء ترى الرجال وتهرب!

- لماذا؟ ألا تهرب من رؤية النساء؟ - تساءل واياكي حائراً.

الغابة هادئة، لذا كان بوسع المرء أن يسمع ارتعاشات الماء المتلاشية.

- أنت لا تعرف ذلك! منذ زمن بعيد حدث أن حكمت النساء هذه الأرض ورجالها. كانت النساء قاسيات فاستاء الرجال من قبضتهن القوية. وحين حبلت النساء قام الرجال جميعهم وأطاحوا بهن. قبل ذلك كانت النساء تملك كل شيء. والحيوان الذي رأيته كان ماعزهن، ولأن النسوة لم يكنّ قادرات على قيادتها هربت الماعز. إذ أدركت أن المرأة مخلوقٌ ضعيف فلماذا تخشاه.

عندها أدرك واياكي سبب عدم امتلاك أمّه لأيّ شيء.

وصلا إلى القمة. وجدا طريقاً مألوفاً بدا كأنه لم يُسلَكْ منذ وقت طويل، واتّبعاه، أمامهما تلٌّ صغير يقوم وحيداً، فلمحا المكان المقدس فوق قمته. ارتجّ قلب واياكي. وأحس أنه متلهف وخائف في الوقت ذاته.

عند حافة التل تقوم شجرة موغومو[1] ضخمة. إنها شجرة هائلة الحجم، كثيفة وغامضة. حولها نما الدغل وانحنى بجلال. هناك أيضاً تنهض الشجرة القديمة شامخة فوق التل، ترقب من موقعها الريف كله، شجرة مقدسة تبعث الرهبة في النفس. هيمنت على روح واياكي لدرجة شعر معها أنه صغير جداً، وفي حضرة قوة عظيمة. إنها شجرة مورنغو إله الأجداد.

وقف واياكي فوق قمة التل، في الجانب الآخر من الشجرة. نظر إلى الأرض نظرة شاملة. أحس كأن قلبه سيتوقف تحت وطأة سعة الأرض. بدت سلاسل التلال مسطحة تحت قدميه الصغيرتين. في جهة الشرق كانت الشمس قد أشرقت. وكان بالإمكان رؤيتها بوضوح مثل كرة حمراء كبيرة بألوان مضبَّبة. وثَمَّة خيوط ضوئية دقيقة حمراء مصفرَّة تنطلق من مركز الإشعاع وتلتحم بالضباب الرمادي الذي يوصل الأرض بالغيوم. أبعد من ذلك كانت حافة جبل كيرنياغا تتأرجح بين السحب البيضاء. وكانت قمته المغطاة بالثلوج تومض قليلاً فتكشف مركز الإله مورنغو.

من هناك رأى التلال تغطُّ في نومها. ولم يعد كامينو وماكويو عدوَّين، إنما اندمجا في بقعة واحدة من أرضٍ جميلة. وربما هذا هو ما أريدَ لهما أصلاً.

حين يقف المرء فوق تلّ الإله يرى سلسلتَي كامينو وماكويو والسلاسل الأخرى تستلقي بسلام، وليست هناك أية علامة للحياة.

***

1 - شجرة تين برّي مقدَّسة. في ظلها تُقدَّم القرابين إلى إله الطبيعة «تغاي» وهناك أشجار أخرى مماثلة، غير أنَّ الكثير منها قطعه الأوروبيون عند احتلالهم أرض غيكويو - المترجم.

الفصل الخامس

قبل أن تثير مشاعرَه سكينةُ الصباح، كان تشيغي قادراً على الكلام.

– هل ترى كل هذه الأرض. هذا الريف الممتد الملتحم بالسماء؟

قال بصوت عميق هادئ، وأدرك واياكي أن صوت أبيه كان مثقلاً بمشاعر عنيفة. وهمس:

– نعم.

– إنها جميلة للنظر...

– إنها جميلة.

– وفتية وخصبة...

– أجل، فتية وخصبة.

– كل هذه الأرض هي أرضنا.

– أجل يا أبي.

– أنت تعرف غيكويو وزوجته مومبي...

– أبو وأمُّ القبيلة.

كان تشيغي وابنه يتكلّمان كأنهما في حلم طويل.

– هل ترى ذلك الجبل الذي يظهر من خلال الضباب الرمادي فوق الأفق؟

– كيرنياغا؟

– نعم. إنه جبل مورنغو الذي يشرق بالقداسة.

صمت تشيغي، بينما استمرت نظرته الثابتة. ثم قال:

– ذلك هو مركز مورنغو. مورنغو الذي كوَّن غيكويو ومومبي.

- نعم - همس واياكي.

- أوقفَهما فوق ذلك الجبل وأراهما الأرض كلها.

- نعم - همس ثانية همسةً لا يمكن سماعها بوضوح، بينما اكتسب صوتُ والده نبرة سحرية.

- ومن ذلك الجبل جاء بهما إلى هنا.

كان تشيغي يقف خلف ابنه على بعد خطوتين. نظر عبر السلاسل. نظر عبر التلال. ثم ركز بصره في الفضاء المحيط كمن في حلم. ربما كان يرى شيئاً لا يراه واياكي. ضيّق واياكي عينيه لكنه لم يتمكن من رؤية أي شيء. ومع أنه خشي على أبيه إلا أنه أصبح أقوى مما كان بسبب الكلمات التي تدفقت من فم أبيه العجوز. استمر الأب في الكلام لكنه كان يكلِّم نفسه أكثر مما يكلِّم واياكي، معبراً عن أفكاره ومشاعره بصوت عالٍ، وبينما كان صوته يضيع في الهواء كان تشيغي يكتسب مظهراً وقواماً رفيعين للحد الذي اعتقد واياكي أن هيئة أبيه قد تبدَّلت إلى هيئة أخرى بهيَّة.

- منذ وقت طويل، منذ بدايات الأشياء الأولى، حدث أنْ جاء مورنغو بالرجل والمرأة إلى هنا. وأراهما سعة الأرض ثانية. ومنحهما الريف، لهما ولنسلهما: فالحياة لا تنتهي، أتَرى ماذا هناك؟

لم يتأكَّد واياكي من أن السؤال الأخير كان موجَّهاً إليه، ومع ذلك رفع رأسه فشاهد والده يشير إلى شجرة الموغومو والدغل الكثيف الملتف من حولها.

- إنه مكان مبارك ومقدس. هناك، حيث وطأت أقدام مومبي، نبتتْ ونمتْ تلك الشجرة. وهكذا ترى أن تل كامينو هو الذي ساعد أبا وأمَّ القبيلة. من هنا أخذهما مورنغو إله الأجداد، ووطَّنهما في منطقة مو كورووي واغاتانغا في مقاطعة مورانغا، فأنجبا تسع بنات، أنجبن بدورهن الكثير من الأطفال الذين انتشروا في جميع أرجاء الريف وجاء قليل منهم إلى التلال لحفظ وحماية الشعائر القديمة...

حوّل الرجل العجوز بصره نحو ابنه، ونظر إليه.

– أنت هنا!

– جئت معك يا أبي – ارتبك واياكي. كان على وشك أن ينفض عن نفسه سطوة السحر.

– أعرف. أعرف – قال بصبرٍ نافد – إذن، فهمت أن غيكويو ومومبي قد وطأت أقدامهما هذا المكان!

– نعم.

– أما أنت فقد انحدرت من أولئك القليلين الذين جاؤوا إلى التلال، صمتا معاً. ولم يفهم واياكي ما كان يعنيه والده.

– هل سمعت بموغو واكيبيرو؟

– نعم.

– كان متنبِّئاً... رأى أشياء... كان المستقبل ممتداً أمام ناظريه... ولد وتربّى في كامينو قبل أن يغادره ليروي للناس ما رأى. رأى فراشات كثيرة، بألوان متعددة، تطير حول الأرض، وتقلق حياة الريف المنظمة الهادئة. يومها صرخ بأعلى صوته: «سيأتي أناس بملابس كالفراشات»، ولم يصدقوه. بل سخر بعضهم منه، وضحك عليه. وقالوا: «إنه لا يبدو طبيعياً». ولم يستمعوا لصوته الذي حذَّرهم؛ «احترسوا»، لكنهم رفضوه، وكفوا عن إعطائه الملابس والطعام. تألم كثيراً، وأخفى نفسه رافضاً إخبارهم بالمزيد. بعد ذلك غادر إلى ما وراء التلال، إلى العالم الأبعد، إلى أبعد مدى في أرض غيكويو. ولم يكن يائساً، فنشر رسالته هناك بصوت أعلى، وضحكوا عليه أيضاً. وسخروا منه، أما هنا في التلال فقد ظنوا أنه مات. إلا أنه عاد متنكِّراً وأقام بيننا.

صمت تشيغي برهة كما لو أنه يستجمع أنفاسه. ومضت عيناه كأنما بسطوة داخلية، ثم قال ببطء:

– نحن ذريّته، دمُه يجري في عروقنا.

سكن واياكي مثل أبكم، ذلك أن إدراكه لكونه سليل هذا المتنبِّئ الشهير،

الذي كان قادراً على رؤية المستقبل، قد ملأه بإحساس كبير بالدهشة، فلم يكن بوسعه أن يتكلم. ثَمَّة كلمة وحيدة فرّت من فمه هي: «ها»، واستمر والده قائلاً:

لقد مات هنا، وآباؤنا لا يعرفون أين قبرُه، لكن بعضهم قال إن مورنغو حمَلَه إلى السماء.

توقف تشيغي، وبهدوء التفت إلى ابنه الذي كان يرتجف.

– أراك خائفاً. يجب أن تتعلم مواجهة الخوف... الخوف... إنهم لم يرفضوا موغو وحده فقط. فأنا حين أخبرتهم عن سيريانا[1] لم يستمعوا إليَّ أيضاً.

ولأول مرة شعر واياكي أنه خائف فعلاً، واستحوذ عليه رعب مجهول راح يقاومه.

– لا شك أنك تتساءل عن السبب الذي يدعوني لإخبارك بكل هذا...

أراد واياكي أن يصرخ «لا تخبرني بالمزيد. لا أريد أن أسمع أكثر مما سمعت. لا. لا. لا. يا أبي». لكنه بدلاً من ذلك همس بكلمة واحدة:

– نعم!

– لأنك آخر شخص في ذرّية موغو واكيبيرو.

شعر واياكي كأنّ غيمةً ثقيلة تضغط على روحه وتدفعها إلى الأسفل. وثَمَّة إحساس غريب ينبئ بارتباك ما في أحشائه، إحساسٌ كما لو كان شيئاً ما حدسيّاً يندفع نحوه بكلِّ سرعته، بينما هو عاجزٌ عن فعلِ أيّ شيء لإيقافه.

وقال والده برقة:

– اجلسْ.

كانت ساقاه منهكتين فتهاوى على العشب.

– ربما أنت متعب – قال تشيغي وهو يقترب من ابنه. أوقف واياكي ارتجافه، وندم لإظهاره الخوف – وكرّر تشيغي ما قاله ببطء:

---

1 – مركز البعثة التبشيرية في غيكويو – المترجم.

- وهكذا حين شعر موغو بمرارة الألم لم يرغب بإخبارهم المزيد.

وصمت مرة أخرى. كان وجهه ساهماً، وعيناه ساهمتين، وبدا كما لو أنه يحاول أن يستعيد حدثاً موغلاً في القدم، عصيّاً على الاستذكار.

أصبح الآن خلف واياكي تماماً. انحنى ولمس كتف ابنه، فأحسَّ واياكي بارتعاشة خفيفة في يد أبيه. سحب تشيغي يده بسرعة، ثم واصل كلامَه بصوتٍ ذي ارتجافة:

- الآن، اسمع يا بني. انتبه جيداً. لأنّ ما سأقوله لك هو النبوءة القديمة... لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك. حين قدم الرجل الأبيض وأقام في سيريانا حذّرْتُ جميعَ الناس. لكنهم ضحكوا منّي. ربما كنتُ متعجِّلاً، وربما لم أكن الأول. كان موغو غالباً ما يقول إنك لا تستطيع اصطياد الفراشات بالبانغا[1]، ولا تستطيع أن تقتلها إلا إذا عرفت عاداتها وحركاتها، عندها تستطيع أن توقعها في شراكك وتردَّها على أعقابها. وقبل أن يموت همس بالنبوءة في أذن ولده؛ النبوءة القديمة:

«الخلاص سيأتي من التلال. من الدم الذي يتدفَّق في داخلي، أقول من شجرة النسب ذاتها، سيظهر فتىً يقود الناس وينقذهم»، ولم يقل أكثر من ذلك. أما الذين عرفوا النبوءة فكانوا قليلين. ربما كان كابوني الذي خان القبيلة هو واحد منهم. الآن أصبحتُ كهلاً، وحياتي أوشكت على الانتهاء، تذكَّرْ أنك الأخير في أسرة موغو. انهضْ. انتبهْ إلى النبوءة. اذهبْ إلى مركز البعثة التبشيرية. تعلَّم كلَّ حكمة وأسرار الرجل الأبيض، ولكن عليك أن تتجنب عيوبه. كنْ مخلصاً لشعبك وللطقوس القديمة.

- أبي - صاح واياكي عندما شفي من الصدمة، أحسّ أنه صغير وضعيف، ولم يكن يعرف ماذا يريد أن يقول.

- اذهبْ إلى هناك. أقولها ثانيةً. تعلّم كل حكمة الرجل الأبيض،

1- البانغا: كلمة إفريقية محلية تعني: سكين عريضة كبيرة حادَّة: تستخدم لقطع الأشياء القوية كعناقيد الموز، كما تستخدم كسلاح - المترجم.

وتذكَّرْ دائماً أن الخلاص يأتي من التلال. يجب أن يظهر رجلٌ وينقذ الناس في ساعة حاجتهم. سيريهم الطريق، وسيقودهم.

– لكن... لكنهم لا يعرفونني، فأنا طفل وهم الذين رفضوا موغو.

– دعهم يفعلون ما يشاؤون. سيأتي وقتٌ – إني أراه آتياً – يطلقون فيه صرخة الاستغاثة، صرخة البحث عن مخلِّص.

كان الوقت مساءً حين هبطا التلال. وصلا البيت منهكَين. بالنسبة لواياكي بدت التجربة كلها حلماً. ما الذي كان عليه أن يفعله ذلك الطفل؟ أكان عليه أن يذهب عبر التلال ويصيح:

«اسمعوا، سيأتي قائد من التلال لينقذكم».

ولفترة قصيرة أخذ يشك بسلامة عقل والده، فربما كان ذلك مجرد حلم رجل عجوز خرف. وكاد يضحك من الهيئة الجادة التي كان والده يلقي بها كلماته. لكن قلب واياكي كان خالياً من أي أثر للمرح. بل كان يشعر أن شيئاً ما ثقيلاً يدعوه لأن يكون رجلاً في وقت ما يزال فيه فتى.

وجاء وقت اختفى خلاله واياكي من التلال دون علم أحد سوى والده. لقد ذهب إلى سيريانا. وهناك التقى في آخر الفصل الأول، وبأعجوبة بكاماو وكنوثيا؛ رفيقيه اللذين كانا يرعيان قطيعيهما معه. هكذا شاءت الصدفة أن يجتمعوا ويتعلموا من القس المبجل ليفنغستون في مركز سيريانا التبشيري الذي أصبح الآن معهداً كبيراً. هناك أيضاً الكثير من الفتيان الذين جاؤوا من التلال وما بعدها، من كيامبو، ومرانغا، لينالوا حصتهم من سحر الرجل الأبيض.

درسوا واجتهدوا لعدة فصول، كشف خلالها واياكي عن تقدم ملحوظ، للحد الذي أدهش رجال البعثة البيض، فتوسَّموا فيه قائداً مسيحياً شجاعاً مقبلاً للكنيسة. ولكن مَن كان يعلم أن الأشياء تتغير بسرعة أكبر من تصور ليفنغستون، ومِن توقعات الفتى وأخيلته.

***

الفصل السادس

صباحات كامينو وماكويو باردة، قارسة، عادة. أحست نيامبورا بالبرد يقرص جلدها عندما جلست فوق صفيحتها المعدنية بعد أن ملأتها بالماء. ثبتت بصرها على أختها الشابة التي ما تزال تملأ صفيحتها، ثم نظرت إلى ماء النهر المعتم المصفر. إنه يجري كما كان منذ سنوات محدثاً رنيناً لتدفقه المتواصل وهو يشق طريقه حول الصخور الناتئة، كانت نيامبورا مفتونة بالنهر، منجذبة إليه، يشرق صدرها بالفرح يرتفع وينخفض، فتتنهد. أحسَّت بشيء غريب يخفق في أحشائها، إنه انتعاش، إحساس بالابتهاج العنيف، وبالألم إلى حد ما، ذاك الذي يأتيها كلما راقبت حركة النهر الأفعوانية، وأصغت إلى ارتعاشات مياهه.

أهمية نهر هونيا لا يمكن أن تكون أهمية مبالغاً فيها. فالأبقار والماعز والناس يأخذون جميعهم مياههم منه. وربما هذا ما يفسر سبب تسميته بـ «الشافي». وربما هذا أيضاً سبب تسمية الوادي بـ «وادي الحياة».

خلال مراسيم الانتقال إلى عالمي الرجال والنساء يأتي الفتيان والفتيات إلى النهر ليبللوا أجسادهم في صباح الختان، إذ اكتُشِفَ منذ وقت بعيد أن الماء البارد جداً يخدر الجلد، فيجعله أقل ألماً أثناء العملية الجراحية فكرت نيامبورا بذلك وشعرت بالذنب قليلاً. نظرت بقلق إلى أختها التي ما زالت تغرف الماء من النهر، وتساءلت عما إذا كانت مثل هذه الأفكار قد ساورت مرة أختها موثوني. نفت نيامبورا تلك الأفكار عن أختها، وحسدتها، ذلك أن نيامبورا قد أدركت وتعلمت أن الختان

خطيئة، إنه طقس وثني تخلصتا هي وأختها منه. لذا فإن ابنة الرب يجب ألا تدع فكرة الختان تتسلل إلى ذهنها. في هذا الموسم سوف تُرَشَّحُ الفتيات اللواتي بعمر نيامبورا إلى الختان. ولو لم يكن والدهما جوشوا رجلاً تقياً، فمما لا شك فيه أنه كان سيقدمهما كمرشحتين للانتقال إلى عالم النساء.

- نيامبورا. أختي!

أفاقت نيامبورا من خيالها الشرير. كلمتها أختها موثوني. نظرت نيامبورا إليها وتساءلتْ عما يقلق موثوني. ما الذي كان يشرق في روح الفتاة الشابة؟ كانت نيامبورا مقتنعة أن هناك شيئاً ما يعتمل في ذهن موثوني. فهي خلال الأسبوع الأخير، أو خلال الشهرين في الواقع، كانت قد لاحظت شيئاً ما كئيباً ومقلقاً لدى الفتاة الصغيرة موثوني، الأمر الذي آلم نيامبورا. لقد كانت تحبّها.

إنهما دائماً معاً، لا تنفصلان، تلعبان وتعملان سوية. كانت نيامبورا أكبر سناً من موثوني، ولكن ليس من السهل تأكيد ذلك. إنهما طويلتان، رشيقتان، متشابهتان في الطول والنظرات، إلا أن بشرة موثوني كانت أكثر سمرة من بشرة نيامبورا. لهما ذات النظرات الحادة، إنما القلقة بشكل غريب. شعرهما أسود، لامع، كثيف، خشن. لكنه يبدو للناظر ناعماً وجميلاً، ويبعث على الرغبة في لمسه.

ملامح نيامبورا حادة آسرة، وهي هادئة في طبعها بينما موثوني مفعمة بالحيوية. لذا لم يكن مدهشاً أن تلحظ نيامبورا تغيراً مفاجئاً في سلوكها. أثناء مجيئهما إلى النهر ذلك الصباح كانت موثوني مستغرقة في أفكارها أكثر من أية فترة مضت. وكانت نيامبورا قلقة جداً. ذلك أن محاولاتها في الأيام السابقة لملاطفة أختها كي تفصح لها عما يشغلها قد باءت بالفشل. والآن تنتظر منها أن تتكلم. كانت موثوني تجلس فوق صفيحتها المعدنية. قالت:

- أريد أن أخبرك بشيء.

– آه، أرجوك قولي – أجابت نيامبورا بلهفة، وبفضول حاد:

– لكن عديني أنْ تحتفظي بما أقوله في نفسك فقط – كانت هذه مناشدة، مناشدة من خوف تقريباً. وكادت نيامبورا أن تضحك، لكنها لم تفعل ذلك بسبب الجِدّ الذي ميَّز صوت ونظرات أختها.

– طيِّب، أخبريني أولاً – قالت نيامبورا بإهمال. أرادت أن تطمئن أختها. وأن تخفف ملامح التوتر في وجهها. رفعت موثوني وجهها لنيامبورا وقد بدا توسلها واضحاً.

– لقد فكرت به كثيراً، لم أتمكن من النوم أو الطعام. أفكاري تروعني، لكني أعتقد أني اتخذت قراري الآن – وتوقفت. حدقت في نيامبورا وأكملت ببطء وهدوء:

– نيامبورا، أريد أنْ أُخْتَن.

ولثانيةٍ شعرت نيامبورا وهي جالسة، كما لو أن أفكارها ووجودها ومشاعرها قد أصيبت بالشلل. ولم تستطع أن تتكلم، إذ كان الإعلان مباغتاً جداً. وصاعقاً جداً. كيف يمكنها أن تصدّق ما سمعته من فم موثوني؟ نظرت إلى النهر. إلى الأعشاب المائية المتأرجحة عند الضفتين وما خلفهما. لا شيء كان يتحرك في طريق الماشية الكبير الممتد عبر الغابة باتجاه كامينو. أشعة نور الصباح الصفراء كانت تمتزج في الغابة مسببة ظلالاً طويلة على طريق الماشية. وكانت الحشرات تطلق أصواتاً متتالية تختلط مع ضجيج الماء المتساقط عميقاً في الوادي. لقد ساهم ذلك كله في تكثيف الصمت الذي خلقه إعلان موثوني.

– تُختَنين؟ – أخيراً وجدت نيامبورا صوتها.

– نعم.

– لكن والدي لن يسمح بذلك، سوف يغضب منك. ثم كيف يمكنك التفكير بالختان؟

كان باستطاعة نيامبورا أن تتخيل غضب جوشوا حين يسمع بالأمر. واستمرَّت تقول:

– إضافة إلى ذلك فأنت مسيحية، أنت وأنا نعتبر الآن واعيتَين في نظر الناس البيض. لقد علمنا والدنا ما تعلمه من سيريانا، وأنت تعرفين أن المبشِّرين لا يحبّون ختان الفتيات. هكذا يقول أبي. فضلاً عن أن يسوع علَّمنا أن الختان خطأٌ وإثم.

– أعرف. لكني أريد أن أُختَن.

– لماذا؟ – سألت نيامبورا بيأس.

إنها تعرف جيداً أن والدها لن يصغي إلى مثل هذا الكلام. إن كل رجل من رجال الرب يدرك أن الختان طقسٌ وثنيّ. كما أن المبشرين كانوا قد حذَّروا جوشوا منه مرّاتٍ ومرات. لربما سكن الشيطان رأس موثوني. تلك هي الطريقة التي يعمل الشيطان بها. وحاولت نيامبورا أن تجادل أختها.

– أعرف، لكن – صمتت موثوني. لم تكن قد رأت أختها هكذا من قبل. لم ترها بذلك اللمعان في عينيها. شعرت بوهن في ساقيها، وفكرت أنها مخطئة. لكنها في اللحظة التالية قفزت واندفعت نحو أختها، وتكلّمت بجد وانفعال، لأنها كانت موقنة تماماً بما هي عازمة عليه.

اشتبك ساعدا نيامبورا بساعدي موثوني، وظلتا هكذا كطفلين صغيرين. تنبهت نيامبورا إلى الانفعال في صوت موثوني، فتكلّمت برقة:

– أبي وأمي...

وقاطعتها موثوني:

– افهمي، أرجوك. أريد أن أكون امرأة، أريد أن أكون فتاة حقيقية، عارفة بعادات التلال.

– لكن أبي، تذكَّريه.

– لماذا؟ هل نحن حمقى؟ – هزت نيامبورا أختها – أبي وأمي مختونان، أليسا مسيحيَّين؟ الختان لم يمنعهما من أن يكونا مسيحيَّين. أنا أيضاً اعتنقت عقيدة الإنسان الأبيض. ومع ذلك أدرك أنه سيكون

شيئاً جميلاً، شيئاً جميلاً الانتقال إلى عالم النساء. أنت تعرفين عادات القبيلة. أجل. إله الإنسان الأبيض لا يقنعني تماماً. أحتاج شيئاً أكثر، حياتي وحياتك هنا في التلال، ذلك ما نعرفه نحن، أنت وأنا.

نظرت موثوني خلف نيامبورا كمن ينظر إلى أناس آخرين، ثم خفضت صوتها وهمست سرّاً:

– قال أبي هناك رجل في البعثة – ليفنغستون – له الكثير من النساء، زوجاته. هل تعتقدين أنه يتزوج من امرأةٍ ليست مختونة؟ من المؤكد أنه لا توجد قبيلة ليست مختونة. ثم كيف تكبر فتاة لتصبح امرأة؟

تحرَّرت موثوني من قبضة أختها. نهضت وحوّلت بصرها عن نيامبورا. التي لم تقل شيئاً. ولم تتابع منطق أو خط سير أفكار موثوني، كما أنها لم تكن قد فكرت بمثل هذا العمق في أشياءَ كهذه. كانت قانعة بأن ما يقوله والدها هو الصواب، فتتبعه. وكانت تخشى غضبه. استدارت موثوني ثانية وتمسكت بأختها متوسِّلةً بعينيها وجسدها:

– أرجوك يا أختي لا تخبري، لا تخبري أبي.

وبَكَتَا معاً. رقّ قلب نيامبورا، وشعرت بالعطف على أختها، وتمنَّت فعلاً لو أنها تستطيع مساعدتها، لكنها أحست بعجزها بقوة.

– كيف ستحضرين المَراسِم؟

– سأحضر سراً. ولن يعلم أبي أو أمي. لكني لا أعرف أين أذهب.

حاولت نيامبورا أن تساعدها:

– عمّتُنا التي تعيش في كامينو.

– أوه، نعم. لقد فكرت بذلك، سأذهب إلى كامينو وأظل معها حين تبدأ الطقوس.

ما الذي تستطيع نيامبورا أن تفعله أكثر من ذلك؟ حاولت ثانية أن تعترض على أختها، ولكنها لم تحقق أية نتيجة. في أعماقها كانت تدرك أن موثوني إذا صممت على شيء فمن الصعب أن تجعلها تتركه. لقد

ورثت هذه الروح العنيدة من أبيها جوشوا، الرجل الذي إذا قرر شيئاً فمن العسير أن ينحرف عنه.

كان نهر هونيا يجري. والحشرات كانت تواصل أصواتها المتوالية المختلطة مع تساقط مياه النهر، وغدا المشهد برمَّتِه مخيفاً بالنسبة لنيامبورا، فلم تعد متلهفة كما كانت عند مجيئها للنهر. حتى أنَّ دفء شمس الصباح لم يتمكن من إيقاظها من سُهومها. كانت تحبّ أختها. وشعرت بالاضطراب لأنها تستطيع أن تحدس ما سيحدث.

حملتا صحيفتي الماء. وأخذتا ترتقيان طريق التلّ المؤدي إلى بيتهما في ماكويو ببطء. فجأةً سمعت نيامبورا آهةً خفيفة ندَّت عن أختها. وبسرعة التفتت إليها، فرأت فزعاً في وجهها. كانت صفيحتها تتدحرج على المنحدر عائدة إلى الأسفل. إذن عليهما أن تعودا إلى النهر. «فألٌ سيِّئ»، فكَّرت نيامبورا.

***

الفصل السابع

رجال ونساء تلّ ماكويو كانوا قد نهضوا وشرعوا بأداء أعمالهم اليومية الصباحية، حين وصلت الفتاتان اللتان تنوءان تحت ثقل صفيحتي الماء على ظهريهما، إلى البيت. على امتداد التل ثَمَّة دخان أزرق كثيف يرتفع ملتوياً إلى الأعلى منبعثاً من الأكواخ ذات الجدران الطينية، المتناثرة التي تؤلف القرية. هناك نسوة لم ينهضنَ مبكراً كما يبدو، إذ كُنَّ في طريقهن إلى النهر لجلب الماء، بينما انتشرت هنا وهناك قطعان الأبقار والماعز التي يسوقها أولاد صغار. كانت تمشي بتثاقل في كل الاتجاهات.

ثَمَّة تماثل عام بين جميع البيوت الممتدة فوق التل. فهي تتألف من مجاميع من أكواخ مدورة مسقوفة بالقش. كل مجموعة مكونة من ثلاثة أو أربعة أكواخ، وسياج من أشجار يحيط ببيت كل أسرة، ما عدا بيت جوشوا الذي كان مختلفاً. إنه مبنى مستطيل الشكل بسقف من صفيح، متميز بوضوح، وحيداً فوق التل. كان السقف قد تساقط منه بعض الصفيح، فنفذت منه مياه الأمطار، لذا كان من الممكن رؤية قطع قليلة من الخيش تغطي الأجزاء التالفة من قمة السقف. ربما يشير تميُّزُ المبنى إلى أنّ عزلة ماكويو القديمة عن بقية أجزاء البلاد قد تلاشت الآن، مع أنه ليست هناك بلدة قريبة حتى ذلك الحين. فنايروبي، تلك البلدة المجهولة بالنسبة لساكني التلال ما تزال بعيدة. لكن سيريانا هي البلدة الأقرب: إنها مساحة كبيرة تضم مستشفيات ومدارس مزدهرة يذهب إليها الفتيان والفتيات من جميع أرجاء الريف. ومع ذلك فالمبشرون لم

يخترقوا التلال بعد، رغم أنهم أرسلوا عدداً من المريدين للعمل هناك. إذ ظل الناس محافظين، يتبعون عاداتهم، عادات الأرض. كان ليفنغستون يقوم بزيارات للتلال من حين لآخر ليمد أتباعه المختلفين بطاقة وحياة جديدتين. غير أن عمله الرئيس كان جوشوا يقوم به.

في ذلك الوقت كان جوشوا، والدُ نيامبورا وموثوني، متوسط العمر. وكان يعظ الناس على الدوام بنبرة جرسية حادة تنطق بالقوة والمعرفة. كان هو وعدد قليل آخر من الأوائل الذين اعتنقوا الدين الجديد، وقتها كان شاباً، ترك التلال، وأقام مع الرجل الأبيض في مركز البعثة الذي كان قد تأسس حديثاً. لقد خاف من انتقام التلال، من غضب أصدقائه الذين اعتبروه خائناً. في سيريانا وجد الملاذ وسلطة الرجل الأبيض وسحره. تعلم القراءة والكتابة، وتغلغل الدين الجديد في أعماقه حتى تملَّكَهُ كلّيةً. فهجر سحر القبيلة وسلطتها وطقسها، واستغرق في الدين الجديد، فأحس بالحضور العميق للرب الواحد. ألم يهبْ جهودَه للرجل الأبيض؟ لقد تحدَّثَ بما قيل في يسوع.

«انظرْ، العذراء ستحمل،

وتضع ولداً.

وستدعوه عمانوئيل».

أدرك جوشوا جهل ناسه في التلال، كما أدرك عمق الظلام الذي يعيشون فيه. رأى الماء العكر الذي كانوا يخوضون فيه غير مبالين بالقذارة والطين. كانوا يعبدون مورنغو، وموينينياغا، ونغاي. أما الرجل الأبيض، المعصوم، فكان يسمِّي إله غيكويو أميرَ الظلام.

كان أشعيا، عرّاف الرجل الأبيض قد تنبَّأ بيسوع، بمجيء المسيح. هل تكهَّن موغو واكيبيرو، متنبئ غيكويو بمجيء مخلِّصٍ كهذا.

«كان أشعيا عظيماً، حدَّثَهم عن يسوع، مخلِّص العالم.

أولئك الذين ينكرونه هم أطفال الظلام.

أولئك أبناء وبنات الشيطان.

سوف يلقى بهم في الجحيم.

وسيحرقون، ويحرقون إلى الأبد، في عالم سرمدي».

تلك الكلمات العنيفة أخافت جوشوا، وهزَّت جسده كلّه، هزّته حتى جذور وجوده. ومن ثمَّ عُمِّد، عندها فقط شعر بالاطمئنان وتوقَّف ارتجافه.

أحسَّ بالسعادة تغمره، وتشعّ في روحه. لقد نجا من الجحيم. وشعر بأنه مخلوقٌ جديد. وهذا ما كان يقوله دائماً في البيت وفي الكنيسة إذا تبنى أيُّ شخصٍ المسيحية فهو مخلوقٌ جديد.

تطهَّر ثانيةً، وغدا واعظاً شجاعاً، متحرِّراً من الخوف، ولم يعد يخشى تشيغي. أو ما ستقوله له أو تفعله ضده التلال وساكنوها. فعاد إلى ماكويو، وراح يلقي عظاته بعنف وغضب لدرجة أنّه أدخل الرعب في نفوس مستمعيه القدماء. قليلون هم الذين رفضوا وقاوموا ذلك الصوت. وكثيرون حضروا عظاته، فتحول بعضهم إلى الدين الجديد. لقد ابتهجوا معاً، وسبّحوا باسم الله.

لكن بعضهم عاد إلى الشراب، وإلى الرقص أثناء الطقوس القبائلية، وإلى الختان أيضاً. ويوماً بعد يوم غدا جوشوا حانقاً، وراح يشجب بقوة مثل هذا السلوك. فربما لم تتجذَّر الكلمة في أعماقهم. جوشوا نفسه كان صارماً، وراقب الكلمة حرفياً.

كان الانتظام الديني في عائلته حازماً. إذ أراد جوشوا أن يكون مثلاً للجميع، ضوءاً مشعاً ينير الطريق، حجراً يخطو فوقه الضعيف في طريقه إلى المسيح.

كان جالساً خارج البيت عندما جاءت الفتاتان، أنزلتا الصفيحتين. نظر إليهما، إلى الطريقة التي تعملان بها، إلى توحدهما فشعر باعتداد الأب وافتخاره. أراد لبيته أساساً دينياً متيناً، أراد أن يتعمق إخلاص بنتيه، أن تتبعا سبيل الرب. ألا يُثبِتُ ذلك للجميع أيُّ بيتٍ مسيحيٍّ بيتُه؟!

لم تكن سنةً اعتيادية. كانت مواسمها غنية، جُمعت خلالها الذرة،

والفاصولياء، وأُدخَـرت للمستقبل المجهول. كان الناس سعداء ومبتهجين. وكانت مجموعة المسيحيين في ماكويو تذهب معاً وتصلّي للرب.

اجتمع الرجال الأكبر سناً في تل كامينو وكل أرجاء ريف الأسود النائمة، وقدموا القرابين إلى مورنغو تحت الشجرة المقدسة. إلا أن هذا لم يكن سوى مقدمة للعديد من الطقوس التي سيؤدّيها ليس فقط أتباع جوشوا في التهيئة لعيد الميلاد، بل جميعُ الفتية والفتيات المرشحين لمراسيم الانتقال إلى عالَمَي الرجال والنساء.

كان جوشوا مناهضاً لتلك الشعائر، خاصةً ختان النساء الذي بدأ يتخذ مغزىً جديداً في العلاقة بين ماكويو وكامينو. وكان التساهل في هذا الطقس ذنباً لا يغتفر. ألم يقل إنه سيتبنى كل شيء ما عدا مصر؟ سوف يبحر إلى الأرض الموعودة بشجاعة كجندي مسيحي، ولن يثنيه عن تنفيذ هدفه أحد. لقد أراد أن يدخل القدس الجديدة كرجلٍ بمعنى الكلمة.

والحقُّ أن جوشوا كان يرى الختان إثماً كبيراً، للحد الذي كرّس صلاة مخصَّصة لهذا الطقس، سائلاً الرب أن يغفر له زواجه من امرأةٍ مختونة.

«أيها الرب، أنت تعرف أنها ليست غلطتي، أيها الرب.

لم يكن بمقدوري أن أفعل غير ذلك،

لقد وافقت حين كانت في مصر».

أحياناً، عندما يختلي بزوجته ميريامو، ينظر إليها، ويقول بحزن: «أتمنى ألا تكوني قد مررتِ بهذا الطقس».

وميريامو لم تكن تشارك زوجها عواطفه أو تتعلق بها. إلا أنها تعرفه. جوشوا رجل مخلصٌ للرب، مؤمن بالعهد القديم بقوة، لذا فهو لا يتورَّع عن معاقبة الخطيئة حتى لو تطلب ذلك ضرب زوجته، ولا يهتم الملك طالما كان ينفِّذ عدالة الرب.

طوال ذلك العام لم تمضِ الأمور على نحوٍ حسن مع جوشوا. وسكان تل كامينو كانوا قلقين، إذ اعتقدوا أن جوشوا هو المسؤول عن الرجال

البيض الذين أخذوا يفِدُون باستمرار إلى التلال تلك الأيام. وسرت إشاعات تقول إن مخفراً حكومياً سيبنى قريباً في ماكويو، وستحكم التلال من هناك.

في آخر زيارة قام بها لسيريانا، أعلن له أحد الرجال البيض أن الناس في التلال سوف يدفعون ضرائبَ إلى حكومةٍ في نايروبي. يومها هزّ الناس أكتافهم جاهلين معنى الضرائب، ومع ذلك لاموا جوشوا على التدخُّل في شؤونهم.

لم يعبأ جوشوا بذلك، كان يعرف ماذا تعني الحكومة، إذْ استفهمَ عنها من ليفنغستون. وكان مدركاً أن واجبه كمسيحيّ هو أن يطيع الحكومة، أن يعطي ما لقيصر لقيصر، وما للرب للرب. وذلك ما كان يريد من كل مسيحيٍّ أن يفعله. ثم أليس الرجل الأبيض أخاً له؟ أكان الرجل الأبيض مسؤولاً عن شرور الأرض؟ كلا! إنه العمى الذي أصاب الناس، أولئك الناس لن يسيروا في طريق النور. انظر الآن إلى الاستعدادات والطقوس القائمة في كل أرجاء الأرض، انظر إلى الآثمين وهم يوغلون أكثر فأكثر في وحل الخطيئة القذر. أحياناً كانت تلمُّ بجوشوا لحظاتٌ من الغضب العنيف، وبعد انتهاء الصلاة يشعر بالاطمئنان ويعلو وجهَه الهدوء. كان ينتظر حدوثَ شيءٍ ما، يدرك أنَّ عليه التحلّي بالصبر. ورتّل تسابيحَه:

«أيها الرب، انظرْ إلى استعداداتهم.

أيُّها الرب، لماذا لا تنقضُّ على هذا الجبل البغيض وتُنهي عاداتهم الشريرة؟ فالختان قادم.

قفْ إلى جانبي، أيها الرب».

أحسَّ كمن يخرج حاملاً عصا لمعاقبة هؤلاء الناس، ولإجبارهم على أن يركعوا أمامه. ألم يحدث هذا لبني إسرائيل الذين انصرفوا عن الرب، أولئك الذين لم يصغوا إلى صوته؟

«أرسلْ النار والرعد.

أرسلْ الفيضان».

ولم يحدث شيء. استمرَّت الاستعدادات لمَراسِم الانتقال، بينما كان جوشوا وأتباعه يتهيَّؤون للاحتفال بميلاد المنقذ، المسيح.

***

الفصل الثامن

يومُ الأحد يوم عملٍ كثيف بالنسبة لجوشوا، إذ يقود طقساً دينياً طويلاً، ومع أن كابوني كان يساعده أحياناً إلا أن كابوني كواعظ يتمتع بقدرة أقل على إخضاع الآخرين من جوشوا الذي يبدو كمن يعظ بإيمان منبعث من أعماقه، بعد أن تنتهي الصلاة يبدأ ترتيل الأناشيد، ومن ثم العديد من اللقاءات مع أناس التلال، وأحياناً يكون على جوشوا أن يجوب الريف كله من تل إلى آخر.

في أحدٍ ما قاد جوشوا طقساً دينياً طويلاً. وحين انتهى شعر بإنهاك، قبل ذلك بأسبوع كان قد سافر إلى سيريانا بصحبة كابوني لمناقشة التطورات الأخيرة. كانت سيريانا بعيدة، كما أنهما قطعا المسافة مشياً.

بعد الموعظة أحس جوشوا بإرهاق شديد لدرجة أنه لم ينتظر الصلاة التقليدية، والتراتيل خارج كنيسة ماكويو الصغيرة. هناك رأى زوجته ميريامو وعادا معاً إلى البيت.

نيامبورا التي لم تنتظر أبداً التراتيل في الخارج كانت تتقدمهما ببضع ياردات. أما موثوني فلم تكن هناك.

عادوا إلى البيت، ولم يجدوا موثوني، ليس ثَمَّة ما يقلق، فموثوني غالباً ما تذهب إلى الجوار لتقضي وقتاً في الحديث مع القرويات. ومع أن نيامبورا كانت تعرف أنها لم تترك موثوني في البيت إلا أنها اندهشت عندما لم تجدها.

في المساء لم ترجع موثوني، فتسارع نبض قلب نيامبورا، قلقت،

فخرجت أمام البيت لترتل قداساً، لكنها في الواقع كانت ترقب عودة أختها، دخلت إلى البيت، وغاص قلبها حين رأت وجه أمها الجامد، كان جوشوا مستلقياً في فراشه، وكانت نيامبورا مضطربة في سرّها، ومرتعبة من اللحظة التي سيسأل فيها جوشوا عن موثوني. إنه لا يسمح لبناته بالتأخر خارج البيت. كما أنه كان صارماً جداً ذلك اليوم بسبب أغاني الانتقال إلى عالَمَي الرجال والنساء التي كانت تنشَد في التلال. إنه لا يريد لبناته أن يتلوَّثن بها، ربما كان من حسن الحظ أنه أوى إلى فراشه مبكراً على غير عادته ذلك المساء. مكتبة ياسمين

- أتساءل عن موثوني أين هي؟ - قالت ميريامو بحيرة.

إنها امرأةٌ مسالمة، تكره أي توتر غير ضروري يحصل في البيت، كانت تنصح أطفالها على الدوام قائلة: «أطيعوا أباكم»، ولم تكن تلفظ ذلك بقسوة أو مرارة، إنما هو تعبير عن إيمان، عن إخلاص، عن أسلوب حياة. «والدكم يقول هذا...»؛ فتتوقع التنفيذ من أولادها بدون تذمر أو استياء، لقد تعلمت مغزى الخضوع المسيحي، واعتقدت أن أي مؤمن آخر له الموقف ذاته من الحياة. ميريامو لم تسأل عن معنى لحياتها، لأنها أعطتها رجلاً أحبته واهتمت به على طريقتها. إن عقيدتها وإيمانها بالرب قد اقترنا بتوجسها من جوشوا. لكن ذلك هو الدين، وتلك هي سنّة الأمور. وبرغم ذلك فإن بمقدور المرء أن يكتشف من خلال عينيها الدِّين الذي تعلَّمتْه وقبلت به، إنما في أعماقها ترقدُ امرأةٌ من قبيلة غيكويو.

ظلت نيامبورا صامتة، لا تعرف ماذا تقول. وقبل أن تتمكن من تهيئة جواب مناسب نادى والدها على موثوني. كان من عادته أن ينادي عليها حين يحتاج شيئاً ما. تبادلت نيامبورا مع أمها النظرات كما لو أنهما اكتشفتا تلك اللحظة فقط غياب موثوني. وثبت نيامبورا نحو الخارج كأنها ذاهبة للبحث عن أختها، لكنها أرادت أن تبتعد عن غضب والدها.

لم تخبر موثوني أختها نيامبورا أنها ستغادر البيت. إنما تسللت من

الكنيسة فحسب، غير أن نيامبورا لم تنسَ مشهد ذلك الصباح، عند النهر حتى لو كان قبل شهور.

حين عادت ودخلت البيت وجدت جوشوا واقفاً قرب ميريامو، يحدق فيها غاضباً.

– أقولُ لكِ ثانيةً، إنك تعرفين أين ابنتك. اخرجي. اخرجي وفتِّشي عنها.

هبط الليل. وقفت نيامبورا بجوار الباب مرتعدة. كان القِدْر الذي فوق الأحجار الثلاث يغلي. خرجت ميريامو. هذا هو معنى أن تكون أماً، أن تحمل على كتفيها عبء آثام وذنوب الأبناء. دارت حول البيت فتشت كل الأكواخ التي من المرجح أن تذهب موثوني إليها، ولم تجدها. رجعت، ورأت نيامبورا قد أزالت القِدْر عن النار. لم يتبادل جوشوا مع نيامبورا أية كلمة، كما أنه لم يكلّف نفسه عناء السؤال منها عن أختها. ربما أعماه غضبُه. وسأل ميريامو بعنف:

– هل وجدتها؟

لم تجبْ بشيء.

– عودي وجِدِيها، لا يمكن أن تنام خارج البيت.

ترددت ميريامو، أين يجب أن تذهب؟ شعرت أن جوشوا لم يكن عاقلاً، لكنها لا تعرف كيف تخبره. ولا تعرف كيف تثبت له ذلك، وللحظة عانت نيامبورا من عذاب الروح الممزقة بين ولاءين، إلا أنها كانت خائفة قبل كل شيء. أتكشف سر موثوني؟ ماذا لو عادت موثوني؟

– لكن، لكن... – تمتمت ميريامو.

نيامبورا فقدت صبرها. بذلت أقصى جهد كي تحافظ على وعدها اللَّامنطوق لموثوني.

– ربما ذهبت إلى عمَّتي – أوحتْ بفَزع.

كان الأفضل لو أنها استمرت على صمتها، إذ وثب جوشوا نحوها – ماذا! عمتك؟ لأيّ شيء؟ قولي حالاً.

انكمشت نيامبورا تحت انفجاره الغاضب. تردَّدت. ثم تفادت لحظة البوح بالقول:

– أعتقد أنها ذهبت إلى عمتي في كامينو.

– ماذا تفعل؟

ليس ثَمَّة ما يسعفها. نظرت إلى الباب. تهيأت للركض نحو الخارج وهي تجمع شجاعتها لتنطق بالكلمة المشؤومة: الختان.

– ماذا؟

– لكي تختن.

وقبل أن تتمكن من الهرب كان جوشوا واقفاً فوقها. حملق فيها وهو يهزّها. كان على وشك الجنون. ثَمَّة زبَدٌ يمكن رؤيته في طرفَي فمه.

– كيف عرفتِ؟ من أخبرك؟

احتمتْ بنفسها مرتعبة. ظنت أنه سيضربها. لكنها فوجئت عندما تركها وهو يطلق تنهيدة صغيرة أحست فيها ألماً وعذاباً. وأشفقت عليه.

ببطء خطا عائداً إلى الموقد، واسترخى على مقعد. بدا أشبه بحيوانٍ ضارٍ يعاني الهزيمة والإذلال لأول مرة. أدرك أنه شاخ، وقال بصوت معتدل، لا حياة فيه:

– لمرة واحدة أسمح لك بالذهاب إلى كامينو. اذهبي إلى تلك المرأة التي تسمينها عمتك. واطلبي من موثوني أن تعود إلى البيت. فإذا وافقت سوف ننسى كل شيء، وإلا أخبريها بأنها لم تعد ابنتي.

ومضى إلى سريره.

خيّم صمتٌ على البيت بعد أن أعلن جوشوا ذلك. ميريامو لم تتكلم؛ فقد صدمت هي الأخرى ساكنةً بفعلة موثوني. تلك الفعلة التي بدت بلا تفسير، فعلةٌ نشأت دونما دافع. إنها تحب موثوني، ولا تريد أن تفقدها. إنها تعرف جوشوا، فهو يعني ما يقول. وسالت من عينيها دموعٌ التمعت بوهج الجَّمرات الذّاوية في الموقد. كانت النار تلتهب من حين لآخر

فتلقي على الجدران الطينية ظلالاً مشوّهة. تحرَّكت الظلال التي لا شكل لها وتموَّجت بهيئةٍ ساخرة.

في اليوم التالي جاءت نيامبورا بأنباءٍ سيئة، إذ رفضت موثوني العودة.

جلس جوشوا ساهماً وهو يستمع إلى نيامبورا. كان قد شعر بالعار عندما تملكه الشيطان على غفلة منه في الليلة الماضية. صلَّى وسأل الرب أن يمنحه القوة كي لا يتمكن منه الشيطان ثانيةً أثناء إغفاءة. لكن الأنباء كانت قاسية عليه، قاسية على رجل يمضي في طريق الصلاح. فتذكَّر النبي أيّوب، وشكر الرب.

ومنذ ذلك اليوم لم تعد موثوني موجودة في قلبه. لقد جلبت عاراً أبدياً له ولبيته الذي كان يريد أن يجعله مثالاً للبيت المسيحيّ.

حسناً، فلتعدْ إلى مصر. أجل. فلتعدْ. أمّا هو، جوشوا. فسيسافر ويسافر إلى القدس الجديدة دونما انقطاع.

***

الفصل التاسع

جاء موسم الحصاد ومضى. كان موسماً وفيراً ابتهج الناس له، فهم لم يجربوا حصاداً كهذا منذ سنوات. تنهد الشيوخ بخوف مبهم وهم يشهدون صخب الاهتياج يخفق بين التلال باعثاً الارتعاش في الأشياء، ألم يروا أحداثاً كهذه من قبل في سنوات شبابهم؟

عندئذٍ قدّم الرجال الأكبر سناً العديد من القرابين المحرقة إلى مورنغو إله الأجداد، مَنْ لا يعرف ما يتنبأ به حصاد استثنائي مثل هذا؟ مَنْ لا يتذكر المجاعة الكبيرة التي اكتسحت التلال ناشرة أصابعها الدخانية على امتداد أرض غيكويو؟ كان ذلك قبل المجيء الفعلي للرجل الأبيض. يومها كان أغلب الشيوخ شباباً. لكنهم لم ينسوا أبداً الحصاد الوفير والثروة الكبيرة التي سبقت المجاعة.

بوسع تشيغي أن يتذكَّر ذلك بوضوح. لقد اعتقد هو وآخرون أن المجاعة لن تحدث ثانية. لكنها حدثت بعد وقت قصير. عندها غادر تشيغي وعروساه، وأناس آخرون، التلال عبر ممر مجهول. غير أن زوجتيه لم تتمكنا من مواجهة الكارثة، فتوفِّيتا. كان تشيغي ما يزال شاباً. وسرعان ما وجد له عروساً أخرى وعاد إلى التلال، عاد ليخبر الناس عن الرجل الأبيض. لكنهم لم يستمعوا إليه، حتى عندما جاء الرجل الأبيض إلى سيريانا لم يستمع الناس إلى كلمة تشيغي. وبعد أن تحول كابوني وجوشوا إلى الدين الجديد قطع علاقته السابقة بهما. فهذان المسيحيان لن يوفّقا إلى الصلاح، هكذا كان يقول دائماً. لقد رأى أكثر مما رأى سواه.

إن أتباع جوشوا سوف يجلبون إلى الأرض المزيد من الانقسامات للحد الذي ستفنى عنده القبيلة على أثرها.

ألم يعظ هذان المسيحيان ضد كل ما هو خيّر وجميل في القبيلة؟ كان الختان الطقس الأساسي في حياة غيكويو. مَنْ سمع مرة بفتاة لم تختن؟ من الذي سيقدم الأبقار والماعز لفتاة لم تختن؟ بالتأكيد لن يكون ابنهن ابن تشيغي. فواياكي لن يخون القبيلة أبداً.

لم يكن لدى تشيغي مخاوف كبيرة بشأن عائلته. فبناته ختنَّ وتزوّجنَ، وابنه واياكي الذي يدرس في سيريانا منذ عدة سنوات، ليس من المرجح أن تفسده العبادة الجديدة. إنه يعد نفسه للمجيء والدفاع عن القبيلة. لكن تشيغي كان يتعرض أحياناً لشكوك حول ابنه. أيتخلى عن القبيلة؟ أيتخلى عن النبوءة؟ في مثل هذه الأوقات كان تشيغي يعاني من شعور بالانهزام واليأس. وفي كل مرة يأتي فيها واياكي بإجازة كان والده يرى من خلاله أن الأمور تسير على نحو طيب، مع أنه لم يكن يحدّثه كثيراً.

واحتفظ بذلك لنفسه. كان يدرك أن العمر يتقدم سريعاً به، ولم يتبقَّ له سوى أيام معدودة، وأنه غدا معتمداً اعتماداً تاماً على ابنه الشاب، لقد بدا الابن كمًا لو أنه يحمل حياة أبيه وقلبه، لذا فإن الأب كان يخشى من أن تزل قدم الفتى ويتعثَّر.

لم ير تشيغي تناقضاً في موقفه، تناقضاً بين الرجل المعبِّر عن غيكويو الحقيقي، والرجل الذي أرسل ابنه إلى مركز البعثة التبشيرية الذي عارض على الدوام وجودَه على أرضهم. ولكن ماذا يهمه؟ لقد حذَّر الناس، فرفضوا الاستعداد للقتال، وربما لم يعد ثَمَّة متسع من الوقت كي يتهيَّؤوا للقتال، ولحسن الحظ ما تزال هناك وسائل أخرى لصد الرجل الأبيض. فالنبوءة ما تزال قائمة، وفي تحقُّقها يكمن الأمل. لقد تعلم تشيغي درساً وها هو ينقله لابنه. إنه لشيءٌ حسن أن تكون عارفاً بشؤون الرجل الأبيض.

وهكذا ظل تشيغي ينتظر ويأمل. راقب ابنه، راقبه في تطوره وفي سلوكه، عاش في أعماقه، ذلك أن النبوءة إن لم تتحقق على يده فعلى

يد ابنه، ما الفرق؟ منقذ من التلال سيأتي. حسناً، واياكي آخر شخص في أسرة ذلك المتنبئ العظيم الذي تكهن بقيام مسيح أسود من التلال. كان الفتى يجتهد في سيريانا، إذ سافر إلى هناك عقب ولادته الثانية مباشرةً.

وفي هذا الموسم سوف ينتقل إلى عالم الرجال، الأمر الذي سيساعده في أن يتشرَّب بمعرفة الرجل الأبيض بسرعة أكبر، والعودة لمساعدة القبيلة، وهذا ما كان يريده تشيغي: أن يرى واياكي رجلاً قبل أن يموت، عندها سيتأكد من أن العمل الذي بدأ به – كلا الذي بدأ به موغو منذ وقت بعيد – لم ينتهِ. إذ بمقدورك أن تثق بسهولة برجل مختون أكثر مما تثق بفتىً لم يختن بعد.

كانت القرابين تقدّم برفقة الاستعدادات للختان الآني. وفي كل مكان اجتمع المرشحون للطقس. كانوا ينتقلون من بيت إلى بيت يرقصون ويغنُّون أغانِيَ شعائرية، تلك التي غُنِّيَت في الأزمان القديمة، يوم كان ديمي على الأرض.

كان واياكي أحدَ المرشَّحين، شابّاً، قويَّ البنية، رشيقاً. ولم يكن يحبُّ الرقصات كثيراً. والسبب الأول في ذلك هو أنه لا يستطيع تأديتها كما يؤدِّيها أترابُه الذين تدرّبوا عليها سنواتٍ عديدة. أمّا هو فقد ذهب إلى سيريانا بعد ولادته الثانية مباشرةً، وأمضى فيها تلك السنوات، مع أنه كان يأتي لزيارة أهله في العطلات.

غالباً ما اندهش واياكي من أبيه الذي بدا بطريقة وكأنه يتحدى الزمن، مع أن صوته كان خافتاً ومرتعشاً يكشف عن شيخوخته. وكثيراً ما تذكر واياكي سبب إرساله إلى سيريانا. ولكن مع مرور السنوات غدا الحلم أقل حيوية، وأقل حقيقية. رآه وهماً، حلم رجل عجوز. ومع ذلك اجتهد في دراسته. وها هو في الصف المنتهي في مدرسة سيريانا الثانوية، حيث توفَّر له اللقاء بالفتيان من جميع أرجاء كينيا...

غير أنَّ غياب واياكي عن التلال جعله بعيداً عن مثل تلك الفعاليات ذات الأهمية القصوى للقبيلة. ثم، وعلى كل حال، لم يكن بوسعه جمع

واستيعاب الأفكار والمفاهيم التي منعته من الاستجابة تلقائياً لتلك الرقصات والاحتفالات.

لكنه كان يدرك أن عليه اجتياز فترة الانتقال، كما أنه لا يحب أن يخيّب أمل والده. ذلك أنه متأكد من أن الرجل العجوز سوف يموت في حلم المستقبل ذاك، الذي ربما كان حقيقياً، جزءاً رئيساً في حياته، كما أنه لا يكره فكرة الختان. بل على العكس كان يتطلع إليها. فالختان هو طموح فتُوَّته لاختبار شجاعته أثناء الطقس. كان يعتبر ليفنغستون برغم معرفته وقداسته موغلاً في هجومه على عادةٍ لم يفهم مغزاها الحقيقي لدى القبيلة، ومن المرجح ألّا يفهمَها أبداً.

فوق إيقاعات الطبول والصنوج ارتفعت صيحاتٌ من التلال لتوقظ أولئك الذين ذهبوا للنوم، فهذه الليلة هي عشيّة الانتقال، إنها رقصةٌ أكبر من كل الرقصات.

كان ذهن واياكي مشوشاً ومضطرباً. إنه لا يتذكر حالة مثل هذه منذ الرحلة الشهيرة إلى الأيكة المقدسة، لكن ذلك أصبح حلماً، الآن ثَمَّة شيء حقيقي، شيء على كل لسان. وطوال الوقت ظل يتساءل «لماذا فَعَلَتْ ذلك»؟ وأحس برغبة في أن يكلِّمَها، في أن يسمع الجواب من فمها، إذ إنّ تمرُّدها قد انتشر من تلٍّ إلى آخر، كأن الأنباء تنتقل عبر الريح والطبول، فتهامسوا باسمها من موقد إلى موقد. كان قد رآها قبل يوم في بيت ذهبت للرقص فيه. ولم يصدق حين ربت على كتفه أحد المرشحين للانتقال إلى عالم الرجال وهو يشير إلى فتاة شابة كانت تثب وتؤرجح ردفيها وسط مجموعة من النسوة الراقصات.

- تلك هي موثوني.

- أيُّ موثوني؟

- ابنة جوشوا، طبعاً.

- ابنة جوشوا! ابنة جوشوا!

بدا له الأمر غير قابل للتصديق. إنه يعرف موثوني عندما كانت صغيرة. وبوسعه أن يتذكر اليوم الذي أرعبوها فيه هو وكنوثيا وكاماو، يوم هاجموها من كمين عند نهر هونيا، لحظتها أحس واياكي بالمرح الذي تحول إلى عار فيما بعد. إذ فكر أن ليس من الشجاعة إخافة الفتيات الصغيرات، وضربته أمه عندما علمت بمشاركته في ذلك. ومن حسن الحظ أن المسألة حصرت بين النسوة وتشيغي، ولم يعلم جوشوا بها.

ها هي موثوني... كان واياكي قد رأى جوشوا عدة مرات في ماكويو وسيريانا، كما سمع عن صرامته في القضايا المتعلقة بالدين، والتي هي من أهم قضايا الحياة بالنسبة له. كيف تمكنتْ من المجيء إلى هنا؟ ربما هربتْ، العديد من الفتيات فعلن ذلك، على الأقل هذا ما سمعه من الفتيان الذين قدموا من مناطق ما وراء التلال حيث أقيمت البعثة التبشيرية منذ وقت طويل، تلك الليلة فتَّشَ عن كنوثيا الذي كان هو الآخر مرشحاً للانتقال إلى عالم الرجال.

– أنت تفاجئني – قال كنوثيا وضحك عليه – ألم تسمع أنها هربت؟

وبطريقة ما هزته فكرة هروبها وتمرُّدها ضد السلطة فعلاً. فهو نفسه لا يملك الجرأة على مخالفة قرار أبيه. على الأقل لا يتمكن من رؤية نفسه وهو يفعل ذلك.

إذن، أدرك واياكي تلك الليلة أنها هربت فعلاً، وأن عمتها الساكنة في كامينو هي التي تتولّى أمرَ العناية بها. ولكن في بعض القرى لم يصدّق الناس هذه الحكاية، وقالوا إن لجوشوا يداً في الأمر لاسترضاء واستمالة الآلهة التي غضبت من التلال المسيئة، ألم يعلموا أن جوشوا يشرب البيرة سرّاً؟ غريب، أن أحداً لم يره مرة وهو يشرب، لكنهم قالوا إنهم يعرفون ذلك.

كان الرقص يجري في الهواء الطلق، في مكان من كامينو، أخذوا الصفّارات والقرون والصفائح المعدنية التالفة وكل شيء يمكن استخدامه، وراحوا يعزفون مع إيقاع الأغنية والرقصة. وسيطرت على الجميع نوبة من

هياج: الشيوخ والفتيان، النسوة والأطفال، كلهم أغرقوا أنفسهم في حركة رقص ساحرة. كان الرجال يزعقون ويصرخون ويتقافزون في الهواء، في حلقة مستديرة، إنها لحظة التفوق بالنسبة لهم، لحظة الفرصة المناسبة، نسوة عاريات حتى الخصور بنهود ناحلة ترفرف فوق صدورهن، يدُرنَ عدة مرات حول النار الكبيرة، ويؤرجحن أردافهن، ويفتلن أجسادهن بكل أنواع الإثارة. إنما يحافظن على الإيقاع دائماً.

كانوا أحراراً. في هذه الليلة، يتساوى الشيوخ مع الشباب. وفي هذه الليلة أيضاً بمقدورك أن تغني عن أي شيء، أن تتحدث عن الأشياء الخفية للرجال والنساء دون شعور بأنك تنتهك العرف الاجتماعي الذي يحكم علاقات الناس، خاصة العلاقة بين الشباب والشيوخ، بين الرجل والمرأة.

ظل واياكي مضطرباً، يحس بشيء ما في أعماقه يمنعه من أن يغرق نفسه في جنون الرقص كالآخرين، أكان ذلك بسبب موثوني؟ تساءل عما سيقوله ليفنغستون إذا شاهده، أو إذا شاهد الفوضى التي أحدثتها العواطف الحبيسة التي أطلقت من قيودها. والكلمات؟ حتى واياكي كان مرتبكاً من الكلام عن أشياء ممنوعة. ربما سبب إرباكه قد جاء من أن ذكر الأشياء الممنوعة في أي وقت غير هذا يعد عملاً محرّماً من الناحية الاجتماعية. بالطبع كان واياكي متأكداً من عدم حدوث شيء سيِّئ رغم الكلام، إذ كان شيئاً محرَّماً حقّاً أن تذهب مع امرأةٍ في مناسبة كهذه.

عند ذاك ظهرت موثوني في المشهد، وصدح الغناء عالياً، مستثاراً. كانت مذهلة، أين تعلمت هذا؟ تساءل واياكي وهو يرقبها من موقعه، رقصت، وغنت، ووصفت الحب. روت عن العلاقات بين الرجل والمرأة، مثّلت مشاهد، وألقت كلمات عن ممارسة الحب. من المؤكد أن المبشرين في سيريانا كانوا سيحكمون عليها بالجحيم الأبدي لو شاهدوها. حدق واياكي فيها وقد أثير شيء ما في داخله. جميلة ومبتهجة بدت موثوني في الضوء الأصفر. إنه نوع غريب من الابتهاج.

فجأة جذبه أحدٌ ما إلى الحلقة. إنه كنوثيا. «ارقصْ»، صاحت الفتيات وهُنّ يسحبنه على امتداد الحلقة، ويرقصن بأردافهن. في البداية جعله الشيء الذي في أعماقه متحفِّظاً، مانعاً إياه من المشاركة الفعلية. ورغم أن جسده قد تحرك، وأن فمه استجاب للكلمات، إلّا أن روحه لم تسهم تماماً. ثم، ومن زاوية ما سمع أحداً ينطق باسمه. كانوا يغنون له، وكان بعضهم يمتدحه، وبعضهم الآخر يسخر منه. والتقط اسمه الطبالون والعازفون المنفردون.

عاد الصخب والاهتياج ثانية، بغتة أحس واياكي كأن يداً ناعمة قوية تمسك بروحه وتنتزعها. إنه لمن الغريب حقاً أن يشعر بعواطفه ورغباته مقيَّدة مؤقتاً في هذه الساعة الفريدة التي لا تُعوَّض، وتحرَّر، ونسي كل شيء. أراد ذلك الشيء فقط، ذلك الثَمَل المجنون للنشوة والابتهاج. عندها ومض حافزٌ بأمواجٍ متسارعة في جسده وفي كيانه.

ناولوه بوقاً، وراح ينفخ فيه بجنون، قفز. أرجح وركيه، وأدّى بجسده كافة أنواع الأعاجيب. وحاول الآخرون أن يتبعوه. نأى سر موثوني – ليس من الضروري أن تعرفه. لا. عليك أن تلقي بنفسك إلى الحلم في الإيقاع. وخلال ثوانٍ قليلة وجد نفسه مع موثوني وجهاً لوجه، إذ رُمِيَ كلاهما وسط الحلقة.

بدت موثوني كما لو أنها ما تزال ممسكةً به، ليس بالأيدي، ولا بأي شيء مرئي، إنما بشيء في أعماقها. ما هو؟ لم يكن بمقدوره تحديده. ربما ضحكتها. فكر أن فيها سحراً، لأنها ترن في قلبه، تثير أشياء فيه لم يكن قد فكر بها من قبل. ثم ما الذي يلتمع في عينيها؟ أهو ومضة حزن؟ خاف واياكي لبعض الوقت، فنظر حوله. كانت أمه ترقبهما. استدار نحو موثوني، فلم يجد السحر. لقد اختفى، في اللحظة التالية وجد واياكي نفسه يحوّم وحيداً، ويشق له طريقاً وسط الحشد بصعوبة، شعر بألم في أحشائه وبأذىً في روحه. لقد تعرَّى وعرَّض نفسه لكل العيون كي تراه. ركض خلفها تحت أطراف الأشجار المعتمة. وقفت هناك. لم

يكن بينهما أية وسيلة للاتصال سوى تنفُّسٍ هادئ، كما لو كان كل منهما يحمل شيطانه الخاص المهيَّأ للصراع مع الآخر.

– أنت متمرِّدة – قال دون وعيٍ تقريباً.

– نعم... أنا – قالت موثوني بتحدٍّ.

– لماذا فعلتِ ذلك يا موثوني؟ – سأل بمرارة.

– فعلت ماذا؟

شعر بحماقته. كانت الكلمات قد تشكَّلت في ذهنه. وكان ينوي أن يكلّمها برقة لتحكي له قصتها، لكنه أخفق، فتمتم مرتبكاً:

– أقصـ... صد... أنت... هر... بتِ من والدك.

لم تجب على الفور. كان صمتٌ بينهما. لم يكن بوسع أحدهما أن يرى الآخر في الظلام، لكنهما كانا يحسان بوجودهما من خلال تنفسهما. ثم تكلمت بصوت واضح، لكنه حزين ومتهدِّج إلى حدٍّ ما:

– لا أحد سيفهم. أقول إني مسيحية. أبي وأمي اعتنقا الدين الجديد، وأنا لم أهرب، إنما أريد أن انتقل إلى عالم النساء وفق عادات القبيلة. أيمكن أن أكون هنا لو أني بقيت هناك؟ أعرف أن والدي لن يوافق إذا طلبت منه المجيء، لذلك جئتُ بنفسي.

بدا صوتها يتغيَّر مع أنها تكلمت بنبرة واحدة. أحس كما لو أنها نسيته، كما لو أنها كانت تروي قصتها للظلام.

– أريد أن أكون امرأة. أبي وأمي مختونان، إذن، لماذا يمنعانه عليّ؟ لماذا ينكرانه عليّ؟ كيف يمكنني أن أكون خارج القبيلة وقد تخلَّت عنّي الفتيات اللواتي ولدن معي في الفترة ذاتها.

بدت كلماتُ موثوني وكأنها فتحتْ عالماً أمامه، إلا أنه لم يكن يراه بوضوح، كان محمولاً بصوتها المرتجّ، المرتعش.

– أريد أن أكون امرأةً جميلة في القبيلة، زوجاً لسريري، أطفالاً يلعبون حول الموقد.

كان ذلك مثل حلم يرتقي به، ناسياً نفسه والمكان الذي يقفان فيه.

تذكر حلماً آخر كهذا حدث منذ زمن بعيد. لكن هذا حلمٌ من نوع مختلف، يثير فيه العنف والقوى المتناقضة.

– نعم، أريد أن أكون امرأة جميلة ضمن عادات القبيلة.

ثم تحركت بعيداً في الحلم، مع الحلم والظلام، بينما بقي هو واقفاً في مكانه وهو يحس بالخدر والدوار. وتدريجياً أفاق، كان مضطرباً، عاد إلى الحشد متأكداً من أنهم لن يمسكوه ثانيةً، كان منفصلاً عنهم، تلك الليلة شعر عبر موجات واهنة من الحزن أنه يفتقد شيئاً ما، أنه يتوق إلى شيء ما في أعماقه، تلك الليلة أَرِقَ ولم يتمكّن من النوم.

***

الفصل العاشر

ضباب في كل مكان، غطّى كامينو وماكويو وتلالاً أخرى بلونه الرمادي المبيَضّ الشفيف. كان الجو بارداً. بارداً يبعث ارتجافاً حاداً في الجلد، ونهرُ هونيا يجري كأنه يتحدّى الضباب. لكن مياهه كانت باردة قارسة.

كان على واياكي أن يستحمّ في مياه النهر في الصباح الباكر. بدا له الماء بارداً كأنه يحزُّ جلدَه مثل سكّين حادّة. ارتعش قليلاً وهو يجلس عارياً قرب ضفة النهر. اخترق الماء البارد جلده فخدَّر العضلات. انثنى ساعداه عند المرفقين واستراحا فوق ركبتَيه. تقلَّصتْ راحتاه بقوة فشكلتا قبضتين للحد الذي ظهرت فيه مفاصل أصابعه كانتفاخات صغيرة، ومرّ إبهام كل يدٍ بين الخنصر والبنصر واتجه إلى الأعلى. انكمش عضوه الذكري، وحين نظر إليه تساءل إن كان ذلك عضوه فعلاً. لم يكن وايكي وحيداً. فهناك المرشحون الآخرون للانتقال إلى عالم الرجال ينتظرون «الطبيب الجراح» على امتداد ضفتي النهر.

طوال حياته ظل واياكي ينتظر هذا اليوم، هذه الفرصة، ليفصح عن شجاعته كرجل. وكان هذا هو الطموح السرِّي لشبابه، حتى إذا جاء هذا اليوم شعر بالخوف، إلا أنه حرص على ألّا يكشفه، إنما حدث في الفضاء فقط، وقد منحه الخوفُ الشجاعة. أحدثت السكِّين ألماً حادّاً دقيقاً وهي تحزّ اللحم. أنجز الجراح عمله، وسال الدم قطرات طليقة على الأرض فامتصها التراب. ومنذ ذلك اليوم ارتبط واياكي مع الأرض

بوثاق ديني كما لو كان دمه قرباناً. لقد أثبت ابن تشيغي نفسه. كانت مثل هذه المدائح تُوفَّر للشجاع فقط.

بعد أن غادره الجرّاح جلس واياكي ساكناً. غطّوه بقطعة قماش بيضاء خفيفة. كل شيء كان على ما يرام، لكن الألم كان يأتي ويهزّه من الجذور. ما الذي كانت تشعر به موثوني؟ تساءل في نفسه. وفكر، لو أنه كان في موقعها لما جلب لنفسه مثل هذا الألم أبداً. وعلى الفور كره نفسه بسبب هذه الأفكار. إنه من القبيلة، وعليه أن يتحمل عاداتها، وأن يكون في أعماق أسرار التلال.

خطرت له أيام طفولته، وتلاشت مسرعة، ازدحم ذهنُه بالعديد من الأفكار، مغامرته الأولى، وسنوات المدرسة، فكر بليفنغستون، بماذا سيفكر لو أنه اكتشفه جالساً هناك بمواجهة النهر، ماسكاً عضوه والدم يقطر بين أصابعه، ويتساقط على الأرض، وتغطيه قطعة قماش كاليكو بيضاء؟ أراد واياكي أن يضحك من الفكرة السخيفة التي من خلالها يرى ليفنغستون واقفاً يرقب جميع الـ... آه... آه، كان الخدرُ يتبدَّد ببطء، ويستعيد الجلد حياته... ألم... لا يستطيع واياكي أن يتحرك... الألم ينهشه، ذلك كان بوابة أسرار التلال. يوم أخذه تشيغي إلى الأيْكة المقدسة ظهر ذلك بقوة لعدة لحظات. ثم فقدت التجربة نهاياتها الواضحة. الأكثر... غرابة، هو كيف تحدى الشيوخُ الزمنَ؟ هل فهمه واياكي؟ شيء ما يجعل تشيغي ناسياً كل شيء من حوله. ليفنغستون بطريقته الخاصة كان يشبه تشيغي... واقفاً في الجانب الآخر... كلا... اختلط الاثنان معاً... الألم ثانية ينهشه كحشرة تقضم في لحمه... أوه... موجتان قويتان... كان خياله شارداً... واياكي... اشحذْ قوَّتك، واصمد...

هتاف وصراخ يمتزجان مع ألم مُمِضّ ونسوة يهتفن ويغنِّين لشجاعتهم، لقد انتهى كل شيء، وأثبت الجيل الجديد نفسه دون أية شائبة.

كان المستشفى سقيفة صغيرة لا تبعد كثيراً عن القرية... وكانت أرضه صلبة، وعرة، ذات نتوءات، أما السرير فهو غطاء رقيق من الحشائش

وأوراق الموز. بعد يومين انتفخ جرحه كثيراً للحد الذي جعله يتساءل مع نفسه مرتاباً عن إمكانية شفائه. ربما سيفقد رجولته! ارتجف. الفتية الآخرون كانوا مثله، قليلون كانوا يصرخون من الألم حالما تُلمَس الأجزاء المتورمة من جانب المكلفين بالعناية بهم. كان الطعام وفيراً، لكن من الذي يتذوقه؟ إنهم يجبرونهم على تناوله عبر تهديدات معذِّبة، كأنْ يقولوا لهم إنَّ «الشيء» الذي بين أفخاذهم سوف يقطع إذا لم يأكلوا. لكن التهديد الأكثر خطورة هو: إذا لم يأكلوا فسوف تأتي امرأة إلى السقيفة ويضاجعها أمامهم أحد المكلفين بالعناية. عندها يفزع الفتية مرتعبين بينما يضحك أولئك الرجال المكلفون بالعناية. إذ إنّ كل شخص كان يعرف مدى الألم الذي تسببه أقلُّ إثارة من هذا النوع.

لكنهم يهدؤون فقط حين يروي لهم المكلَّفون بالعناية حكايات عن الرجال وأسرارهم، في البداية كانت مثل هذه القصص لا تطاق بالنسبة لواياكي، خاصة وأنه مجبر على سماعها، إذ إنّها جزء من تثقيفهم. ولكن بعد أيام قليلة، وعندما بدأ جرحه يتماثل للشفاء اكتشف أنَّ بمقدوره أن يصغي إلى تلك القصص بمتعة واهتمام. فثمة الكثير الذي ينبغي أن يتعلمه.

– هل انتهى كل شيء الآن؟

أجل. ونحن سعداء، فالأولاد كانوا مفخرة التلال.

مفخرة حقاً كان يمكن تلمُّسها في صوت تشيغي. ولهذا ما يبرّره. ففي كل مكان ذهب إليه لقي التهنئة والثناء على ما أظهره واياكي في التعامل مع التجربة كلها، كان الناس مندهشين من أن ثقافة الرجل الأبيض لم تفسده، فصمد أمام امتحان العادات دون تردُّد أو إحجام.

– والفتيات؟ – سأل الشيخ من غاتانجو.

– كلّهن... كلّهن...

– نعم؟ – استفهم الشيخ الذي أحسّ بتردّد تشيغي.

– فتاةٌ واحدة... ليست على ما يرام.

– من هي؟

- موثوني.

- أوه، ابنة جوشوا؟ سمعنا عنها، حالة غريبة بالنسبة لفتاة...

- نعم غريبة - وافق تشيغي.

صمتا قليلاً. كانت الشمس قد توسَّطت السماء لذا جلس الرجلان في ظل شجرة.

- نعم غريبة - كرر تشيغي - كل الفتيات شفين، بدأت جراحهن تلتئم.

- وهي؟ ... تُرِكت في...؟

- أوه، كلا... إنها تقيم مع عمتها... سمعنا أن جرحها أخذ يتضخم ويسوء.

- هذه لعنة الأب.

- ربَّما.

- أولئك المسيحيون لن يوفَّقوا إلى الصلاح أبداً - علَّق الشيخ ببطء وهو يهز رأسه.

- قلت هذا دائماً. انظر إلى النزاع الذي نشب في العائلة، لو لم يكن جوشوا قد باع قلبه إلى أولئك الناس لكانت المسألة هيِّنة. لماذا؟ لأن مجرد خروف أسود، نقي السواد، تحت شجرة موغومو، قربان بسيط ينهي كل شيء نحو الأفضل.

- نعم، لكنه لن يوافق الآن. لقد أصبح عنيداً جداً، سمعت أنهم يشجعونه أولئك البيض.

نهض الشيخ، تناول عصاه. عطس وسحب ورقتي شجرة كان يحملهما، ومسح أنفه:

- حسناً، اذهب الآن قبل غروب الشمس.

- امضِ في سلام، هذه التلال منذ الأزمنة القديمة شهدت أشياء غريبة.

- أتركك بخير، وليشملْك السلام.

ومضى الشيخ، راقبه تشيغي حتى اختفى، ثم نهض واقفاً ونظر عبر

الوادي. ومن خلال فتحة في الغابة كان بمقدوره أن يرى الأكواخ المختلفة التي تستلقي متناثرة فوق التل المقابل. ومن هناك رأى جانباً واحداً فقط من سقف بيت جوشوا. أطلق تشيغي حسرة صغيرة مبهمة، ثم تمتم «شيء سيِّئ، سيِّئ». أخذ عصاه ومشى بتثاقل عائداً إلى البيت.

كان فرحاً بواياكي الذي أصبح رجلاً، لكنه ما يزال خائفاً من الريف كلّه.

***

تأمَّلها واياكي. كانت تتنفس بصعوبة. مضى أسبوع منذ أن استأنف الآخرون حياتهم العادية. لكن موثوني ما تزال تعاني من الألم، لذا جاء لزيارتها.

أجبر نفسه ليقول:

- كيف حالكِ الآن؟

- بخير - أجابت بمشقّة. كان وجهها أكثر عتمة مما كان قبل الختان. لقد تحملت العملية بقوة. أعجب واياكي بشجاعتها، تلك الشجاعة التي لم تغادرها أبداً. تحدثا قليلاً. مرةً واحدة حوّلت فيها بصرها عن واياكي وقالت:

- أتمنى أن تأتيني نيامبورا - لم يكن ذلك شكوى، كان أمنية فقط، أمنية أمِلَتْ أن تتحقق.

- لماذا لم تأتِ؟

- أعتقد أن والدي لن يسمح لها.

- شيءٌ قاسٍ - قال واياكي. لم يكن لديه ما يتحدث به.

- تمرَّدتُ عليه، اخترتُ طريقي. وحين دعاني للعودة إلى البيت رفضت.

ترك واياكي عينيه تستديران حول جدران الكوخ المظلمة. ثَمَّة سخام أسود يتدلى من السقف بخيوط توشك أن تسقط. سرير موثوني كان مصنوعاً

من أعواد الخيزران التي ربطت معاً لتكوّن هيكل السرير الذي وضعت فوقه أعواد أخرى بشكل عرضي وفرش بالحشائش المختلطة بالقليل من الخيش وأوراق الموز. كان السرير واطئاً مستنداً إلى الجدار قرب الباب تماماً. فكر وایاكي: «أهي تدفع ثمن تمرُّدها؟»، جفل لهذه الفكرة. «أتكون المعاناة ثمن اختيار كلِّ امرئٍ لطريقه؟ أتكون ثمن تمرده؟».

- وأمكِ؟

- لن تأتي أيضاً، لن يسمح لها - توقفت لحظة - أنا لا أريدها أن تأتي، ستظل تبكي فقط وتحزن، لذا، أفضل أن أتحمل الألم وحدي.

حين خرج من الكوخ كان مضطرب الفكر. يجب أن يرى نيامبورا. وفي اليوم ذاته ذهب إلى ماكويو، وتجول هناك، حوّم حول بيت جوشوا آملاً أن يقابلها. ثَمَّة شيء ما في موثوني ملأه بالعطف والإعجاب على نحو ما. أكان هو نفسه قادراً على مثل هذا التمرد؟ فكر مليّاً، واكتشف أن من المناسب فقط أن يطيع الشخص أباه. ولربما كانت موثوني مخطئة بعدم طاعتها. ولم ير نيامبورا ذلك اليوم.

في الصباح التالي رآها تأخذ الماء من نهر هونيا. لم يعرفها جيداً. لكنه ذهل للشبه بينها وبين أختها. حتى عيناها لهما ذات النظرة القلقة الصافية التي بعيني موثوني. لم يتحدث معها كثيراً، إنما أخبرها بحالة موثوني بعد التحية مباشرةً. فوجئت نيامبورا، وبكت بمرارة. كان ذلك مربكاً لوایاكي، فانصرف على عجل بعد أن حذَّرها ألّا تخبر موثوني بأنه هو الذي أعلمها. ولم تنتظر نيامبورا، إنما تركت قِدْر الماء وذهبت لترى موثوني، تكررت زياراتها بعد الزيارة الأولى، كانت تتفادى يقظة والدها. وتذهب إلى أختها. وتجلس معها أطول فترة ممكنة، وتحدثها عن أشياء عامة كثيرة، أحياناً كانت دموعها تتدفق من عينيها على نحو مفاجئ ولم يكن بمقدورها حبسها.

- لماذا فعلتِ ذلك؟ لماذا فعلت...؟ - كانت تسألها وكان حبها يمتزج بالألم. أما موثوني فكانت تحاول أن تبتسم وتقول:

- أردت أن أكون امرأة... يوماً ما ستعرفين يا نيامبورا.
- لا أريد أن أعرف. لا أريد أن...
- أنتِ أيضاً سيكون عليك أن تختاري طريقك يوماً ما.
- آه، موثوني، لماذا فعلت...؟
ولم تكمل.

ومع مرور الأيام تدهورت صحة موثوني، وغدا واياكي الذي كان زائراً دائماً قلقاً ومضطرباً. كانت موثوني تنحل بسرعة لافتة للنظر، الشيء الوحيد الذي كان يشي بالحياة هو عيناها. يجب عمل شيء ما. بات واياكي مقتنعاً بأن الأعشاب التي كانت تعطيها العمة لموثوني لن تشفيها من مرضها. فتشاور مع نيامبورا واتفقا، ثم فاتحا العمة. هكذا استجمع شجاعته وقال:
- يجب أن تذهب موثوني إلى المستشفى:
- إلى أين؟ - سألت العمة.
- إلى مستشفى البعثة التبشيرية في سيريانا.

ولعدة أيام ظلت العمة تقاوم تلك الفكرة. توسلت نيامبورا إليها، كارهةً الضغينة في قلب العمة، ولامتها على ذلك الاضطراب، وبدأت العمة تتراجع عن موقفها.
- من سيأخذها؟ - سألت واياكي أخيراً. فكَّر لحظة، وقال:
- إذا لم يكن هناك شخص آخر، فسآخذها أنا. سأجلب من يساعدنا، أنا أعرف الطريق، إنه طريق طويل، ولكن بمقدورنا أن نصل.
- تعالَ غداً.

كانت حالة موثوني سيِّئة. قبل يوم واحد غرقت في حالة هذيان محموم. كانت تضحك، وتصرخ، وتردّد:
- أنا امرأة الآن.

في اليوم الذي أخذوا فيه موثوني إلى المستشفى أبلغت نيامبورا أمها

ميريامو. كانت نيامبورا وأختها قد اتفقتا على ألّا يخبرن الأم بمرض موثوني كي لا يجلبن لها التعاسة. لكن حالتها وصلت درجة خطيرة لم يعد بالإمكان إخفاؤها. وعندما سمعت ميريامو انفجرت باكية، وصرخت:

– لماذا لم تخبريني من قبل. آه يا موثوني.

***

الفصل الحادي عشر

خرج واياكي من كوخ ينبثق منه الدخان. سار ببطء يسحب قدميه خلفه بتثاقل كرجل مخمور. إنه كوخ نجيري، عمة موثوني، إنها أرملة توفي زوجها منذ سنوات بعد أن باغته مرض غريب. هي الآن متوسطة العمر، فقدت الحياة بالنسبة لها الكثير من فتنتها. ولأنها لا تملك أطفالاً فقد كانت ترحِّب بسرور بكل من يدخل بيتها من الأطفال والفتيان. قبل فترة قصيرة أضيئت حياتها بموثوني التي لجأت إليها. لكن الحياة لم تكن كريمة معها فقد توفّيت موثوني.

كان واياكي يسير على امتداد التلال دونما هدف، ويتساءل عما ستفعله نجيري. فمما لا شك فيه أنها ستُلام بسبب موت موثوني، وباستطاعته أن يرى وجهها الذي انكمش فجأة حين سمعت النبأ المحزن. لقد قامت بحركة لا يمكن احتمالها، حركة بسيطة، هكذا أخفت وجهها بيديها ووقفت جامدة دون دموع.

بكت نيامبورا وأمّها بصمت، بلا حسرات حتى. فقد تدفقت دموعٌ من عيونهما وظلت تسيل دون انقطاع. كانتا تنتظران عودة واياكي والشباب العشرة الذين نقلوا موثوني إلى مستشفى سيريانا. لم يكن واياكي قادراً على النظر إلى نيامبورا وأمها. ها هو قد أخبرهما قبل لحظات، ما إن مضت برهة قصيرة حتى هرع مسرعاً خارج البيت. هكذا حدث موت موثوني بعد ثلاثة أيام من مغادرتهم تل كامينو.

لم يذهب واياكي مباشرةً إلى البيت. بدت الشمس كأنها غربت

مبكراً. كان الريف كله ذا لون برتقالي شاحب، باهت. كل شيء بدا هادئاً بشكل غريب. عاد القطيع دون أن يحدث الكثير من الضجيج، وليس ثَمَّة أطفال يلعبون ويقفزون بمرح. وأينما ذهب واياكي كان يقابل وجه موثوني الصامت فيقطع عليه الطريق، ويدير وجهه نحو اتجاه آخر. إنها ما تزال هناك في كل مكان.

كان ليفنغستون في المستشفى، وكذلك النسوة البيض. ظلت موثوني هادئة، وفي عينيها وهجٌ كثيف استمر يلازمها طوال الرحلة الشاقة. ساعتها لم تكن قادرة على المشي. فصنع الشباب نقّالة وحملوها فيها. لم تتكلَّم كثيراً، لكنها تكلمت عن نيامبورا قليلاً.

كان واياكي يدرك محبة موثوني لأختها. وتذكَّر أحد الأيام التي تلت زيارة نيامبورا الأولى لموثوني. دخل الكوخ، وجد الأختين تتجادلان.

– ما أزال مسيحية، أتفهمين؟ مسيحية في القبيلة. انظري، أنا امرأة وسأكبر في القبيلة وتتحسن صحّتي.

حتى بعد أن دخل واياكي لم تتوقف موثوني عن الكلام. لكن كلامها كان متقطعاً ومفككاً، وكانت جاهلةً سرعةَ نحولها.

لم تقضِ موثوني ساعاتٍ كثيرة في سيريانا بعد وصولهم المستشفى. وبوسع واياكي أن يتذكر آخر كلماتها وهم يقتربون من المستشفى «واياكي» والتفتت إليه «قل لنيامبورا إني رأيت يسوع، وإني امرأة جميلة في القبيلة».

ثم توفيت مشدودة إلى ذلك الحلم، إلى ذلك الهاجس الذي قادها من تل ماكويو إلى تل كامينو. من كان يعرف أيَّ هاجس كان؟ السؤال الوحيد الذي كان الناس يسألونه هو: «لماذا فعلتْ ذلك؟ لماذا؟ لماذا؟». حتى بالنسبة لواياكي ظل السؤال «لماذا؟».

هبط الظلام. كان واياكي يتجول مثل روح ضائعة. هل كان هو الآخر مأخوذاً بذلك الحلم؟ كان سرّها... وقد ماتت من أجله. وصل إلى

كوخه الخاص، الذي بُني حديثاً. أشعل المصباح ودخل في الفراش. ولم يتمكن من النوم، بل استمر طوال الليل يسأل «لماذا؟» ولم يعرف من ذاك الذي كان يوجِّه إليه سؤاله.

سمع جوشوا نبأ موت ابنته، إلا أنَّ وجهَه لم يكشف عن أيِّ تأثُّر عاطفي، ما عدا ارتعاشة خفيفة في صوته، خافتة حين يتكلم. لم يسأل ميريامو عن وقت موت موثوني، ولا عن الذي أوصل لها خبرها. بكت ميريامو أكثر فأكثر حين رأت وجهه يتسم بالهدوء، فموثوني لم تعد موجودة بالنسبة له منذ اليوم الذي باعت فيه نفسها إلى الشيطان، أدارت رأسها وتطلعت إلى الأرض الملعونة. لقد فعلت زوجة لوط الشيء نفسه فتحوَّلت إلى حجر، إلى صخرة من ملح. لكي تكون تحذيراً صارماً إلى الأبد. لم تكن الرحلة إلى القدس الجديدة مع الرب أمراً سهلاً. إنها محفوفة بالمخاطر. لكن جوشوا كان مصمماً على الانتصار، على المضي بخطوات سريعة، وعيناه على الصليب. أما موثوني فقد كانت منبوذة بالنسبة له. إنَّ أيَّ شيء تحلُّ عليه اللعنة هنا على الأرض، ستحلُّ عليه اللعنة في السماء أيضاً. وليكن هذا تحذيراً إلى أولئك الذين يتمرَّدون على آبائهم وعلى قوانين الرب.

نظر تشيغي إلى الأمر بصمت. لم يعد الصوت مسموعاً. لم يعد تشيغي يحذر. لقد قام بواجبه. ألم يتنبأ بهذه التعارضات؟ ألم ير التنافر بين الأب وابنته، بين الابن والأب، بسبب الدين الجديد؟ كان ذلك عقاباً لجوشوا. كما هو عقابٌ للتلال. إنه تحذير للجميع من أجل التمسك بعادات التلال وبحكمة الأرض القديمة وطقسها ونشيدها.

هل يسمع جوشوا؟ هل يصغي كابوني إلى صوت مورنغو الغاضب؟ خاف تشيغي عليهما، خاف على أولئك الذين اعتنقوا آلهة غريبة. هل ستسمع التلال وتنهض معاً؟ لكن ماكويو وكامينو ما يزالان متعاديين. فماكويو الآن هو وطن المسيحيين. وكامينو وطن لكل ما هو جميل في القبيلة. من الذي سينهض بمهمة توحيدهما؟

لن يبشر موت موثوني بمستقبل ذلك. ربما يؤدي إلى المزيد من النزاعات. ولم يكن تشيغي يحب ما كان ابنه مشغولاً به. خشي عليه، لكنه كان معجباً به، بشخصيته، وشبابه. ولم يكن بوسعه أن يحدثه بأيّ شيء، إذ اكتشف أنه غير قادر فعلاً على فهمه. هل أفسدتْه سيريانا؟ مرة أخرى أحس تشيغي بصرير عظامه، تلمس شعره الأشيب، وتحسَّر، ثم راقب متأملاً النهار الآفل، وهو جالسٌ على مقعد بثلاث قوائم أمام كوخه. تساءل عن الحكمة في إرسال ابنه إلى مركز البعثة التبشيرية. هل سيُعاقَب تشيغي نفسُه كما عُوقب جوشوا؟ ماذا عن النبوءة؟ فكَّرَ في الذهاب والبحث عن رجلٍ من جيله ليتحدث إليه.

نهض واقفاً. ريح المساء الباردة جعلته يرتجف قليلاً. كان كهلاً، كهلاً جداً. تنهد ثانية. لكنها لم تكن بسبب الشيخوخة أو بسبب إدراكه لزمانه الفاني، بل هي تنهيدة الكثيرين الذين تحدثوا تلك الليلة والأسابيع التي تلتها عن موت موثوني. والحقيقة هي أنه ما من أحد يعرف بالضبط ما الذي سيجلبه ذلك الموت.

بعيداً، في سيريانا، ثَمَّة تنهيدة ذات معنى مغاير. إذ أثبت موت موثوني وحشيَّة عادات قبيلة غيكويو. كان ليفنغستون، رئيس البعثة التبشيرية قد أعلن أكثر من مرة عن ممانعته اختراق التلال. بل كان يميل دائماً إلى فكرة تدريب عددٍ من الفتيان الذين سيكون من الممكن إرسالُهم إلى هناك لنشر الكتاب المقدَّس. إنه الآن رجلٌ عجوز، أصلعُ الرأس، بلحيةٍ مزدوجة. لديه خوذةٌ كبيرة صنعت من نسيج النبات. كان مولعاً بها، لذا فهو نادراً ما يخلعها من رأسه. لكنه حين يخلعها فإنَّ رأسه يكشف عن تناقض كبير بينه وبين الوجه والأيدي والأقدام النمشة. أينما ذهب ترتجف ساقاه قليلاً، بينما يتَّسم صوتُه المرهق وعادته في الخطابة يميل نحو لفظ الحرف «R» حتى عندما يكون بين رجال ونساء آخرين من البعثة لا يلفظونه. كانت معرفته بلغة قبيلة غيكويو جيدة نوعاً ما، فخمسة وعشرون عاماً من الإقامة في مركز البعثة ليست بالفترة القصيرة.

عندما جاء إلى مركز البعثة كان ممتلئاً بالحيوية، ومن المؤكد أنه كان ممتلئاً بالتوقعات العظيمة أيضاً. كان دائماً يتطلع إلى اليوم الذي سيقطف فيه ثمار جهوده. ولكنه مع مضي السنوات اكتشف أنه لم يحرز تقدماً كبيراً كما كان يتوقع، فكان ذلك خيبة أمل بالنسبة لرجل ترك بلاده وجاء إلى ريف متوحش، متحمساً بحلم البطولة، وبرؤية العديد من الناس الجدد الذين يظفر بهم المسيح من خلال جهوده. غير أن دعوته وبعثته لم تَلْقَ الاستجابةَ التي أمِلَ بها. والحق أن المدرسة والمستشفى قد توسَّعا كثيراً، لكن الناس بدوا مهتمِّين بالتعليم فقط. أما صلاة الخلاص فكانوا يؤدُّونها بشفاههم، لا بقلوبهم.

كانوا متمترسين خلف عاداتهم الظلامية. فحين يمرض الأطفال يعتقدون أنهم مسحورون. وحين يموت رجل يتركونه من دون دفن. ثم هذا العمل الوحشي: الختان.

كان ليفنغستون واحداً من المبشرين الذين يعتبرون أنفسهم متنورين. أولئك الذين صمموا على تعلم عادات أبناء البلاد، وألا يكرروا خطأ الجيل السابق من المبشرين الذين سببوا حروباً قبائلية، ونزاعات أهلية، لأنهم لم يقدِّروا أهمية العادات القبائلية.

بهذه الروح حضر ليفنغستون بعض الرقصات عشية الختان. لكنه شعر بالرعب. فالأغاني التي سمعها، والأفعال التي شاهدها أقنعته بما لا يقبل الشك بأن هؤلاء الناس هم فاسقون بكل معنى الكلمة، أحس بقرف شامل، ولم يعد يحضر مثل تلك الاحتفالات. كان يمكن لعادة الختان أن تُقتَلَع من جذورها، إذا كان هناك أيُّ أملٍ بالخلاص لأولئك الناس. كان ليفنغستون رجلاً معتدلاً، ومؤيداً للأسلوب التدريجي في استئصال العادة، فعلى الرغم من إلحاح زملائه المتحمسين، رفض اتِّباع إجراءات طائشة، متهورة. حدث هذا خلال سنواته الأولى. لكنه حين اكتشف أن سياسته لم تحقق النتائج المرجوة أخذ يعظ الناس بقوة ضد العادة. وحتى ذلك الحين لم تكن الحرب الشاملة قد بدأت، هل

سيرضخ ليفنغستون إلى ضغط زملائه أخيراً؟ لقد أصبح عجوزاً تماماً، وقد انضم إليه في سيريانا دمٌ جديد.

جاء موت موثوني بعد الختان، بعد ذلك الجدع المشوَّه في جسدها، سوف يتهمه الناس. وشعر بأن القدر قد خدعه، وأن الظروف كانت تسخر من عمره الطويل. لكنه سيريهم أن روح الرب ما تزال تشرق في داخله، فالشيخوخة ليست ذات شأن. إنه المسيح الذي سيقاتل ليفنغستون من خلاله أمير الظلام. أجل، المسيح يعمل في داخله، ويجعله شاباً في لحظة الفعل، يجب أن تتم مقاتلة الختان بكل أنواع الوسائل المتوفرة بين أيديهم. وبمقدوره أن يعتمد على جوشوا وكابوني في مساعدته.

ذلك اليوم دخلت امرأة عليه. كان في مكتبه، جفل حين رآها. إنها مارثا، واحدة من أعنف منتقدي سياسته.

- عفواً أيها المبجل.
- نعم؟
- هل تعرف الفتاة التي توفيت؟
- موثوني؟ جلبها واياكي وعددٌ من فتيات البعثة.
- إذن، فأنت لا تعرف والدها.
- نعم، لا أعرف.
- إنها ابنة، ابنة...
- نعم؟
- ابنة جوشوا.

قالت مبتهجة بالنصر، وفي عينيها وميض فرح، حلت برهة وجيزة من الصمت الشامل، بعدها، أطلق آهة صغيرة، «أوه»، آهة صغيرة، مثيرة للشفقة إلى حد ما، إنها الحرب، ها هي تبدأ الآن.

***

الفصل الثاني عشر

خلال أسابيع قليلة أصبح اسم موثوني أسطورة، نُسِجَت حوله القصص، قال بعضهم إنها لم تمت فعلاً بسبب جرح عملية الختان، بل بسبب السم الذي قدّمه لها المبشِّرون. والحق أن واحداً من الشباب الذين نقلوها إلى المستشفى في سيريانا هو الذي رآهم يفعلون ذلك.

اجتمع رجال ماكويو الأكبر سناً. تبادلوا إشارات عامة، ونظروا إلى بعضهم. لقد فهموا. هذا المعتقد الجديد قد أفسد التلال الأمر الذي أغضب مورنغو. استمِعوا إلى الرعد الذي يزأر في السماء. انظُروا إلى البرق الذي يخطف الأبصار، وامضاً فوق الأرض! ذكَروا تشيغي وكلماته، كان يجب أن يصغوا إليه. كان يجب ألّا يضع الرجل الأبيض قَدَماً في سيريانا أبداً، غير أن مخفراً حكومياً كان يبنى على السلسلة المجاورة لتل ماكويو، وقد غدا واضحاً أن على الناس دفع الضرائب.

ماذا بوسعهم أن يفعلوا؟ لقد تأخَّروا كثيراً بالقيام بعمل ما، كان تشيغي على وشك الموت، مرضٌ غريب في المعدة أقعده في البيت. أضف إلى ذلك قوة أولئك المسيحيين الذين يقودهم جوشوا وكابوني، والذين عززوا تل ماكويو باعتباره قلعتهم. ومع ذلك فإن بعض الرجال الأكبر سناً لم يهتموا للأمر. لكن موت موثوني كشف بوضوح أن الشر وحده سيأتي من الانضمام إلى المعتقد الجديد. وابن تشيغي، ماذا عنه؟ خشي الأكبر سناً. كان ينبغي على تشيغي ألّا يسمح له أبداً بالذهاب إلى سيريانا.

واجتمع أتباع جوشوا، تحدثوا وسبَّحوا. واعتقدوا أن موثوني روح شريرة أرسلت إليهم لتختبر إخلاصهم، وبات واضحاً للجميع أن الشر وحده سيأتي من التمسك بالعادات القبائلية.

كان جوشوا، قائدهم وملهمهم، يلقي عظاته بنشاط، وقداسة غريبة تتراقص في عينيه. قبل ذلك ذهب إلى سيريانا، وناقش الأمر مع ليفنغستون الذي أدرك ما يقوله جوشوا. يومها عاد جوشوا بمهمة جديدة: الختان شرٌّ بكل ما في الكلمة من معنى. ومنذ ذلك الحين يجب ألّا يُقبَل أيُّ شخصٍ في عضوية الكنيسة إذا اكتُشِفَ أن له علاقة بأيّ شكلٍ كان مع شعائر الختان. لقد منحت حماسة جوشوا قوةً جديدةً، وأملاً جديداً لأتباعه الذين كان معهم الرجال البيض في سيريانا ومناطق أخرى. ومعهم جميعهم كان الرب.

لم يرجع واياكي إلى سيريانا. كان والده مريضاً جداً، لذا لم يستطع أن يتركه وحيداً. راقب والده خائفاً، إنه لا يتمكن من أن يتخيل البيت من دونه. ماذا يفعل؟ ماذا تفعل التلال؟ عاد بذهنه إلى الوراء وشاهد والده الذي كان يراه دائماً، حتى أنه لم يتعرف إليه ببساطة. ما الذي يجعل تشيغي بعيداً حتى عندما يقف قريباً منك؟ أهو قلقه على القبيلة؟ أهو حلم الرجل العجوز الذي تعلق به يوماً بعد يوم، وفي كل ساعة من حياته؟ تذكر واياكي ذلك اليوم في طفولته، ذلك اليوم الحميمي الذي فهم فيه والده. بدا له الأمر كما لو أن تشيغي ألقى بروحه عاريةً لعدة لحظات أمام الفتى. الفعل الذي لم يكرّره تشيغي ثانيةً.

غريبٌ أن يستعيد واياكي ذلك الحادث بهذه القوة، خاصة وأنه بهت في ذهنه، وفقد نهاياته الواضحة، بعد أن مضى عليه زمنٌ طويل.

هل أن المبشرين عازمون على توسيع الشقاق بين ماكويو وكامينو؟ رأى واياكي التلّين يحدِّقان ببعضهما بتهديدٍ واضح. هل ستقاتلان إثر تشجيع المبشرين لأتباعهم؟

ما أدهش واياكي هو الشعور بالحقد الذي لم يسبق له مثيل، والذي

برز بوفاة موثوني. لكن الحادث بحدّ ذاته يبدو صغيراً. ربما كان واحداً من حوادث التاريخ التي هي صغيرة في ظاهرها، وكبيرة في نتائجها، فهناك فتيات كثيرات كُنَّ قد رُشِّحن للانتقال إلى عالم النساء من قبل. لكن وفاة واحدة أو اثنتين منهن لم تثر أبداً مثل هذا الحقد بين الناس.

رأى واياكي اقتراب أكبر انفصال في حياة البلاد، إذ أدرك أن الصرامة التي أخذ يتبنَّاها ليفنغستون سوف تباعد حتى بين أولئك الذين تمسَّكوا بالعادات الجديدة. فثمَّة أناسٌ لا يهجرون عاداتهم كلية حتى بين الذين يؤيدون جوشوا.

ولم ينتظر واياكي الانفصال طويلاً. لكنَّه جاء من جهة لم يتوقَّعها. جاء من كابوني. وهو أقرب أصدقاء جوشوا، فتبعه كثيرون، بينما ظل جوشوا موالياً لسيريانا فجمع البقية الباقية من الناس الذين راحوا يعززون بعضهم بعضاً كالمريدين في الأزمنة القديمة. أحس واياكي بثقلٍ يربضُ فوق قلبه بسبب هذا الاضطراب. أين مكانه في كل هذا؟ شعر أنه غريب، غريب عن أرضه.

يوماً ما كان واياكي عائداً إلى بيته من تلٍّ بعيد. كان قد ذهب إلى هناك ليلتقي بصديق، وليقطف أوراقاً من شجرة وُصِفتْ كدواء لوالده المريض. ذلك أن تشيغي لم يكن يصغي لفكرة تناول أدوية الرجل الأبيض منذ وفاة موثوني.

هناك سمع واياكي خبراً مفادُه أن أطفال الذين يتحدّون قوانين الكنيسة، ويستمرّون في عاداتهم القبائليّة سوف يُطرَدون من سيريانا، ولن يُسمَح لأيّ طفلٍ من أطفال الوثنيين بدخول المدرسة ما لم يكن لاجئاً. وحتى في هذه الحالة ينبغي على الطفل أن يتخلَّى عن الختان، أدرك واياكي أن ذلك سيكون النهاية بالنسبة له، كان يأمل إكمال سنته الأخيرة، وكان يحب التعليم.

عاد إلى البيت بوجهٍ مكتئب. أراد أن يتجه مباشرةً إلى كوخه، ويخلو إلى نفسه. لكنه حين اقترب من البيت وجد أمه واقفة في الخارج. كانت

تبكي، فوجئ بها. وعلى الفور نسي أفكاره، إذ إنّه لم يشاهد دموع أمه من قبل.

- ما الذي حدث يا أمي؟

وانفجرت باكية من جديد. «ما الذي حدث؟»، سأل ثانيةً بخوف. عندها رأى مجموعة من الرجال الأكبر سناً يخرجون من كوخ والده. رمى أوراق الشجرة من يده متألماً، غاضباً. وركض نحو الكوخ بأمل أن يرى والده حيّاً، ولو لثانيةٍ واحدة.

***

الفصل الثالث عشر

قطرة، قطرة، على امتداد حافة السقف الذي من الحديد المموّج. قطرة، قطرة، يتساقط المطر في خيطٍ من حبَّات كبيرة متتالية على الأرض كما لو كانت تتنافس في سباق.

شكَّل المطر حُفَراً صغيرة وبركاً وفجوات، قطرة! واحدة كبيرة شفافة، رقيقة تهبط إلى الأسفل في بركة صغيرة، ساعدتها مثيلاتها على خلقها بصبر. تضرب صفحة الماء في الحفرة فيقفز الماء الطيني إلى الأعلى مكوِّناً عموداً مخروطياً سرعان ما ينطفئ. وعلى امتداد الأرض كانت المخاريط تتقافز إلى الأعلى مثل جنود يراوحون الخطى. في الخارج، العشب الذي ظلَّ لفترة طويلة ذابلاً وسقيماً بدأ الآن يستيقظ منتعشاً.

وتساقط المطر بعنف. خيوط دقيقة في كل مكان تشكل حاجزاً ضبابياً، فلا يستطيع المرء أن يرى أبعد من ياردات قليلة. أخذت المخاريط تتقافز متسارعة، ثم توقف المطر وحلَّ محلَّه دفقٌ مائي يأتي من السقف كما لو أنه يواصل السباق.

وقف واياكي في باب مكتبه واضعاً قدمه اليسرى على الدعامة الخفيضة، وساند جسده بيديه اللَّتين تمسَّكتا بجانبي إطار الباب. تأمَّل قطرات المطر المائلة. كانت البناية ذات الجدران الطينية، التي تشبه الثكنة، المسقفة بالأعمدة والقش، والتي يمكن رؤيتها بصعوبة عبر المطر الضبابي، جاثمةً كما هي منذ حوالي ثلاث سنوات. إنها المدرسة المؤلَّفة من مكتب واياكي إضافة إلى البناية التي قسمت إلى أربعة صفوف. أدرك

واياكي ما كان يحدث داخل جدران البناية، فالسقف المُعَدُّ من الحشائش لا يصمد أمام المطر. ومن المؤكد أن بِركاً صغيرة من الماء قد تكوَّنت فوق أرضية الصفوف، ذلك هو ثمن التعطُّش للمعرفة، الذي ينبغي على الأطفال أن يدفعوه.

ربما هم محتشدون الآن مجاميعَ في إحدى الزوايا الجافة، يرتجفون من البرد، المحظوظ فقط هو الذي يملك شيئاً يغطي به رأسه.

داخل المكتب كان زميلاه المعلِّمان، كاماو وكنوثيا يتناقشان حول موضوع ما. كانا يجلسان كعادتهما إلى طاولة. إنهما يأتيان إلى هنا لأن المكتب هو غرفة للمعلمين أيضاً. عندما يكون لديهم اجتماع، أو حديث أو نقاش، أو شجار أحياناً يأتون إلى المكتب، ويتحدَّثون في السياسة والدين والنساء وشؤون أُخرى. على الأرضية، في الزاويتين، قرب الباب، كومتان من أشياءَ مختلفة. فالمكتب يُستخدَم كمخزن أيضاً، حيث يمكن أنْ تحفظ معدَّات المدرسة. كما أنَّ من المتعذَّر تقريباً محاولةُ حفظ الأشياء في نظامٍ مناسب لأيَّة فترة طويلة.

تواصل المطر. كان واياكي يراقبه. وبذهنٍ مشوَّش يفكر في المدرسة وريف الأسود النائمة. فهو لم يعد معزولاً، إذ أصابه ما أصاب أيَّ جزءٍ آخر من غيكويو، منذ أن تحولت ملكية الأرض في التلال والسلاسل المحيطة بسيريانا إلى المستوطنين البيض. إن ذراع الرجل الأبيض طويلة كما أخبره والده تشيغي ذات مرة. ها هو احتلال الأراضي يجري الآن. وغدا بعض الناس يعملون في الأراضي التي تحوَّلت ملكيَّتُها كي يحصلوا على النقود، ويدفعوا الضرائب.

كان كنوثيا يقول:

– شيءٌ سيِّئ، شيءٌ سيِّئ. أرى أن على الرجل الأبيض أن يغادر. أن يعود من حيث أتى، ويتركنا نحرث أرضنا بسلام.

كان الآخرون مستغرقين في المطر المتساقط، وبدا كنوثيا كما لو أنه يعبر عن الأفكار التي خطرت في ذهن واياكي.

كنوثيا هادئ بطبيعته، لكنه حين يناقش أحداً تتغير عيناه ذات الحركة البطيئة، وتتوثبان بالانفعال. ثم يتكلّم مُلَوِّحاً بذراعيه في الهواء.

كنوثيا رجلٌ قصير، بكتفين عريضتين متينتين، وذقنٍ صغير حادّ. إنه يمتلك أسلوباً يتغلَّب فيه على خصمه بعنف صوته أكثر مما بالمنطق البارد.

كانت النقاشات السياسية التي تجري في المكتب إنما هي مؤشِّرٌ لما كان يحدث في جميع أرجاء التلال. حقاً، ثَمَّة حاجة متزايدة للقيام بعمل ما. وقد تعزز هذا الشعور بسبب تحويل ملكية الأرض القريبة من سيريانا. الأمر الذي أجبر أناساً كثيرين على الارتحال من أراضيهم التي سكنوها منذ عصور. في حين كان على آخرين أن يقيموا فوق الأرض ذاتها، وأن يعملوا لصالح أسيادهم الجُدُد.

الانفصال عن سيريانا جعل الموقف أسوأ، وأغضب الناس كثيراً. شعروا بألم الظلم. وبدا للبعض أن التلال نامت طويلاً أكثر مما ينبغي. فأخذوا يستعيدون تحذيرات تشيغي. وتمنّوا لو أنهم استجابوا لندائه في الأيام الأولى. عندها انبثقت منظمات صغيرة في التلال، ووجد واياكي نفسه مشغولاً على الدوام. وراح عناصرها يأتون لرؤيته باعتباره قائداً، وبشكل غريزي يتجهون إليه لأجل أشياء صغيرة. غير أنه كان قلقاً دائماً بسبب الهوّة الآخذة في الاتساع بين أتباع جوشوا والعناصر المنفصلة.

في قلب واياكي مودَّة خاصة لكنوثيا. لكنه لا يحمل الشعور ذاته لكاماو. كاماو بن كابوني. كابوني الذي كان من أتباع جوشوا، والآن قائد المنفصلين عن سيريانا. كاماو نحيف، طويل، إلا أنه لم يصبح طويلاً للحدّ الذي توقَّعَه الناس عندما كان صبيّاً. أما عيناه فقد حافظتا على تلك النظرة الصارمة، المتوتِّرة.

ولم يحبّ واياكي الطريقة التي ينظر فيها كاماو إليه بعينيه الصغيرتين الغائرتين، ولونهما البني المنقَّط بالأبيض. إنهما تضفيان عليه مظهراً ماكراً؛ ذاته الذي يتبينه فيه واياكي. وكاماو لا يحب واياكي أيضاً، فالشاب

الذي يتولى القيادة يكون دائماً هدفاً لغيرةِ أندادِه، مِمَّن هم أكبر سناً منه، مِمَّن يعتقدون أنه بمقدورهم أن يصبحوا قادةً أفضل.

كان كاماو رجلاً أنيقاً بشعره القصير جداً دائماً. ثَمَّة شيء ما بدا غير مريح، وغير إنساني في أناقته.

هطل المطر بقوة أكبر. والنقاش الساخن ما زال مستمراً. تأمل واياكي المطر والريف، وغدت أفكاره معتمة.

- لنفرض والدك...

- نحن لا نتحدث عن والدي - قاطع كاماو.

أدار واياكي رأسه بهدوء وتبين تجهُّماً في وجه كنوثيا. كان المناخ في الغرفة متوتراً. وفجأة ضحك كنوثيا، وشاركه كاماو. فيما مضى كانا قد تشاجرا حول قضية الآباء أيضاً.

- يجب أن تكون رحب الصدر يا كاماو.

قال واياكي الذي شاركهما الضحك. واستأنف كنوثيا كلامَه مباشرةً:

- طبعاً أقصد والدك كمثال. حسناً لنأخذ والدي مثالاً إذا تحب. إنه رب الأسرة، ولنفرض أن رجلاً آخر كأن يكون كارنجا أو نجوغونا جاء إلينا، وقمنا بواجب الضيافة. وافرِضْ أنه بعد فترة أزاح والدي، واعتبر نفسه ربَّ الأسرة، وله حق السيطرة على ملكيتنا. هل تعتقد أن له حقاً أخلاقياً في ذلك؟ هل تعتقد يا واياكي؟ وهل تعتقد أني ملزم بأية اعتبارات في طاعته؟ حين تصبح الظروف شاقّة، لا تحتمل، عليّ أن أتمرّد، ليس فقط ضده، بل ضد كل ما هو جائرٌ وقاسٍ وغير عادل. خذ بعثة سيريانا مثلاً، جاء رجال الرب إلى أرضنا بسلام. أعطيناهم المكان. الآن انظر ماذا حدث. لقد طلبوا من أخوتهم المجيء والاستيلاء على الأرض كلها. بلدنا يُغزَى يا كاماو، وهذا المَخفر الحكومي خلف ماكويو هو وباءٌ بيننا، ثم ضريبةُ الكوخ...

هنا استبدَّ به الإنهاك، نظر حوله بتحدٍّ أو بحزن، عندها أخذ يتنفّس

بصعوبة. وانفعل ثانيةً. لوّح بيديه في الهواء، ثم ضرب الطاولة، ترك عينيه تدوران في المكان كما لو أنه يتحدّث في اجتماعٍ سياسيٍّ كبير.

لم يسبق لواياكي أن رأى كنوثيا هكذا. ثم لماذا يصبح الذين درسوا في سيريانا متحمسين ضدها على هذا النحو؟ إن ذلك يشبه ما قام به والده الذي أرسله إلى البعثة التبشيرية التي كان يعارضها طوال حياته. ربما كانت الحياة تناقضاً. أحس واياكي بشيءٍ يخفق في داخله وهو يستمع إلى كنوثيا. ربما كان كنوثيا يتكلم عن التلال النائمة، من أجل ريف غيكويو كله، ثم أخمد هذا الإحساس، وفكر في الدافع الجديد للتعليم. فربما كان هو الجواب على تطلعات الناس وآمالهم. وللحظة غرق في تأمله حول التعليم والخطط التي في ذهنه...

– تعال يا واياكي، حدِّثنا عن مجلس القرية الجديد – قال كاماو.

فقد واياكي تخيله، إنما استمر يرقب المطر. المطر شيءٌ مبارك. والمجاعة التي خشي من مجيئها الناس فيما لو استمر الجفاف أخذت تبتعد. تلك اللحظة سالت من الفجوات جداول دقيقة، ضيقة، واخترقت الأعشاب. كانت تتداخل مع بعضها وتتدفق لتلتحم مع الجدول الرئيس كنهر صغير، كنهر هونيا، أو كفيضان. لكن هذا النهر سوف يجف. أما نهر هونيا فسيظل يجري إلى الأبد.

هبط النهر الصغير إلى الأسفل وهو يطلق تمتمات واهنة، يتحدَّث إلى نفسه أو إلى الأرض. إنه «طوفان نوح»، فكر واياكي.

قال كنوثيا:

– نعم، أعتقد أن مجلساً كهذا يحافظ على نقاء عاداتنا وطراز حياتنا. يجب أن يتشكل الآن.

كان واياكي قد سمع عن هذا المجلس، مدركاً أن كابوني وراء فكرة إنشائه. خشي واياكي من أنهم سوف يعطونه موقعاً في قيادته، ذلك المجلس الذي سيضم جميع التلال. ولم يتحمَّس له، بل أراد أن يركز

على التعليم، ربما كان لفكرة ليفنغستون – القائلة بأنَّ التعليم ذو قيمة، وأنّ طلابَه لن يشغلوا أنفسهم بما تفعله الحكومة أو ما تفعله الأحزاب – مكانٌ في قلبه.

استمر المطر بالهطول. كان ينهمر بقوة فوق الأعشاب المسمرّة من حرارة الشمس. ماذا كان ذلك؟ والمطر يتواصل، ويسيل جداولَ دقيقة تجتمع وتنضمّ إلى بعضها.

رأى واياكي ما كانت تفعله الجداول:

تجرف التربة.

تعرّي وتقضم اليابسة.

وتسرق الأرض.

تلك هي الصرخة، الصرخة فوق كلِّ تلّ، ربما لن تنام الأُسود أكثر مِمّا نامت، لأن الجميع كانوا يصرخون، يصرخون من أجل الأرض. فالأرض قيِّمة للقبيلة. وهذا ما يفسر مخاوف كنوثيا وأمثاله من انتهاكات الرجل الأبيض. خافوا مما حدث في كيامبو، ونايبري، ومورانغا. فللمستوطنين الجدد ولمركز سيريانا الوجه ذاته. كان واياكي يفكر، هل كان المتنبئ موغووا كيبيرو مصيباً؟ يوماً ما سيغادر الرجل الأبيض، فتذكر والده، وتلك النبوءة.

غضب فجأةً. ليس من الرجل الأبيض، أو من كنوثيا. إنما من المطر. فالمطر يجرف التربة، ليس في هذا المكان فقط. إنما في كل مكان. وذلك ما يفسر سبب جدب الأرض في بعض الأجزاء. ولبعض الوقت أحس كأنه يقاتل المطر. لقد تحولت القطرات المتسابقة إلى أوحال وطين. همد واياكي، وبدا كما لو أنه يضحك في أعماقه. حتى هنا، في هذا الحدث الطبيعي كان بمقدوره أن يكتشف تناقضاً ما. فالمطر يلمس التربة، واللمسة قد تكون بركة أو لعنة. واياكي رجلٌ بمزاجٍ عاطفيٍّ حادّ.

توقَّف المطر. بينما استمرَّت الجداول الصغيرة تجرف التربة. الآن،

حان الوقت كي يضع حدّاً لذلك. لقد ضاعت فترةُ ما بعد الظهر كلها.

لا سبيل إلى الخارج. هذا ما يحصل دائماً. سوف يكلّم الرجال الأكبر سنّاً ويرى ما يمكن القيام به من أجل إصلاح السقوف.

– أعتقد أنَّ من الأفضل أن ندعَ الأطفال يغادرون – قال واياكي لزميليه – كاماو هل ستخبرهم أن يجلبوا معهم المَسَاحي والرفوش غداً. يجب أن نفكر بمَلْطِ البناية، فثمَّة الكثير من مياه المطر.

من المؤكد أن البناية تحتاج إلى ذلك، فمن المكان الذي يقف فيه باستطاعته أنْ يرى فجواتٍ كبيرة على امتداد جدرانها المثلّمة. وقرع الجرس. إنَّه قطعة حديد معلَّقة في الخارج بسلك. بعد دقائق قليلة كان يمكن سماعُ صياحِ وصراخ الأطفال في كلِّ مكان، ها قد انتهت الدراسة لذلك اليوم.

***

الفصل الرابع عشر

ماريوشوني، هو الاسم الذي أطلق على مدرسة واياكي. كانت مشهورة في الريف، إذ أصبح لها تاريخ. إنها مدرسة الناس الأولى الخاصة بهم، والتي بنيت بعد أن حصل الانفصال عن سيريانا. كانت فكرة إنشائها تعود إلى واياكي الذي لم يدرك حتى الآن كيف أثمرت بهذه السرعة. رأى ذلك كما لو كان شيئاً خارجاً عنه، شيئاً من صنع القدر. كان الحدث يتبع الحديث في تتالٍ سريع، الأمر الذي يسرِّع بدوره من إيقاع الحياة في التلال. كان هناك الحصاد، ثم موت موثوني الذي عقّد قوانين مركز سيريانا إلى الحد الذي لا يُقبَل فيه الطلاب الذين اعتبروهم أطفال ظلام، والذين لم يهجر آباؤهم فكرة الختان. واياكي ما يزال يتذكّر الهياج والتوتر الذي ساد على امتداد السلاسل بسبب تلك الأحداث.

موت أبيه شلّه تقريباً، ولم يعرف سبب ذلك، ومع أن موته كان متوقعاً إلا أنه كان صدمة له. لقد بدا موته جائراً في ذلك الوقت بالتحديد. كان يجب أن يعيش فترة أطول. وهكذا استمر واياكي مخدّراً لا يعرف كيف يفكر أو ماذا يفعل. والمفاجأة الأكبر هي أنه غدا شاباً، معتمداً على نفسه، في هذا المزاج واتته فكرة بناء المدارس. لكن ماذا كان بمقدوره أن يفعل، هو الشاب؟ كما أن ما حدث يعني أنه لن يعود إلى سيريانا أبداً. لقد جاء الوقت الذي يعمل ويخدم فيه أناس التلال.

حين بدأ واياكي في تنفيذ فكرة التعليم اعتماداً على نفسه، رأى ذلك مثل رسالة عليه أن ينجزها. كانت الفكرة حلماً أتبعها بالأمل والحب.

سافر من تلٍّ إلى آخر، وتجوّل في جميع أرجاء الأُسود النائمة. وجد أناساً راغبين بتعليم أبنائهم. أجل، لقد بدأت يقظة التلال. فعرفته الأشجار، والطيور، والممرّات التي وَطِئَها، عرفته رجلاً قُدِّر له أن يخدم بلاده.

ليس هذا المكان هو الوحيد الذي حدث فيه ذلك، إذ إنّ الروح الجديدة اندفعت تمورُ تلقائياً في كلّ ريف غيكويو، من كيرنياغا إلى كابيتي.

ونمت المدارس كالفطر. المدرسة لا تعدو أن تكون سوى سقيفة تبنى على عجل من الأعشاب والحشائش. وهكذا نهضت رموز تعبر عن عطش الناس إلى السحر الغامض للرجل الأبيض وقوته الخفية. قليلون أرادوا أن يتبعوا طراز حياة الرجل الأبيض، إنما كثيرون أرادوا ذلك الشيء، ذلك السحر. كان البناء المشترك للمدارس يُعزى إلى عادة القبيلة في التعاون. إنه تصميم على أن يمتلكوا شيئاً ما ينجز بجهودهم مدفوعين بحماس تصوُّرهم الخاص.

ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك. إنه الختان، طقس القبيلة المهمّ، الذي ظلَّ يجمع الناس معاً، ويقربهم من القبيلة. إنه جوهر البنية الاجتماعية، والشيء الذي يعطي معنى لحياة الإنسان. أما فكرة إنهاء العادة، الأساس الروحي لتوحُّد القبيلة والتحامها فلمْ يعد لها وجود.

كانت الصرخة عالية: غيكويو كارتجا احفظْ القبيلة نقية، صافية، إنها صرخة الروح، أمنية الروح.

وبسرعة غصَّت المدارس بالأطفال المتلهِّفين إلى التعليم، واتَّسع الصف للأطفال الذين احتشدوا فيه. أما المعلِّمون فَهُم مِنَ الذين تمكَّنت المدرسةُ من انتزاعهم من سيريانا. كانوا يجلسون أمام التلاميذ الذين كانوا ينظرون إليهم بعيونهم الصغيرة، الآملة، متلهِّفين لتناول المعرفة، وكان الآباء والأمهات ينتظرون متوقِّعين عودة أبنائهم، وهم ممتلئون بالمعرفة والحكمة. إنهم يشعرون بالفخر، بالفخر الكبير، حين يعود صبيٌّ في المساء ووجهُه مغسولٌ بالدموع.

- ضربَك؟ لا تبكِ، فأنتَ رجل، وهو «معلم».

- هذا معلم ممتاز، إنه يضربهم بقسوة.

وإذ يمرُّ المعلم عبر القرية ينادونه:

- مرحباً يا أستاذ.

- نعم؟

- اضربْهم بقسوة، نريدهم أن يتعلَّموا.

وتمسك الأطفال بحماسةِ آبائهم، ربما رأى الآباء فيهم أمل ومجد القبيلة. ولكن مع تلك التغيّرات العظيمة ظلَّ أناسٌ قليلون محافظين على سلوكهم القديم، لا ينحرفون عنه أبداً.

كان واياكي مديراً لمدرسة ماريوشوني، يذهب إليها في الصباح، ويعود منها في المساء. هكذا كان دائماً تقريباً. كان يحبّها، وكانت المسافة التي يقطعها مشياً تمنحه فرصة للتفكير بمشكلات التعليم. أراد أنْ يعطي الكثير له، وأن يخدم مخلصاً. غير أن قوة الكراهية، والهوّة الآخذة في الاتساع اللتين تولَّدتا إثر وفاة موثوني كانتا كافيتين لبعث القلق في قلب أي شخص.

فهناك المسيحيون الذين يقودهم جوشوا، رجال جوشوا كما يسمون أحياناً. قاعدتهم ماكويو، وهناك أناس القبيلة الذين كانوا دائماً ضد البعثة التبشيرية وعقيدتها، وموقعهم أو قاعدتهم هي كامينو كما كانت من قبل. أما التلال الأخرى فهي تتبع هذا الجزء قليلاً أو كثيراً. وهكذا استمرَّ التنافس القديم تحت هذا المظهر أو ذاك. كان الارتباك يتنامى وينتشر بظلاله تحت الهدوء الظاهريّ للتلال. أيُّ موقفٍ كان الناس يفضّلونه لواياكي؟ ألم يتلقَّ تعليمَه لدى الرجل الأبيض؟ أليس هذا جزءاً من المعتقد الآخر، المعتقد الجديد؟ كانت مجموعة تل كامينو قد قويت بالمجموعة الانفصالية التي يقودها كابوني. أما واياكي فقد شعر أنه يقف بعيداً عن كل ذلك. وأحسّ أحياناً أنه منعزلٌ عنهم.

حتى وسط هذه العزلة كان واياكي فخوراً. كان فخوراً بدوره الصغير المهمّ الذي كان يلعبه في إيقاظ تلال الأُسود النائمة. وفي أعماقه أحسَّ بغموضٍ أنَّ مِن الأفضل مصالحة جميع المتنازعين.

لكن دوره لم يقنعه. إنه ما يزال يشعر بالحاجة والتَّوق لشيء ما يملَؤه كلّيةً، شيء ما يستحوذ على كيانه. وبدا ذلك الشيء خارجاً عنه، يضيع كما كان دائماً في عادات الأرض.

أصبح واياكي رجلاً طويلاً، ذا بنية قوية، يندهش الناس لوسامته، غير أن هذا لم يكن الشيء الأكثر إدهاشاً لهم، إنما كانت عيناه ذات النظرات الرقيقة، المؤسية، الآمرة، المتوسلة. إنهما عيناه اللتان تنطقان بذلك التَّوق، بذلك الشوق لشيء ما يملأ كيانه كلَّه.

أحياناً يدفعه الشوق لأن يجهد نفسه في العمل. إنه قادر على العمل الجادّ الحقيقي. لهذا، ولتصميمه الشجاع أحبَّه الناس، وأعجبوا به. فربَّما تسللت إليه روح والده ذاتها.

إنه شاب لدرجةٍ أربك الناس. فالشاب لا يُتوقَّع منه قيادةُ أو إدارة عمل ما كبير.

- ربما ثقافة الرجل الأبيض- قالوا.

- كلا، ألا تتذكَّره عندما كان فتىً؟

- نعم. كان دائماً غريباً، وممتلئاً بالشجاعة.

- إنها العائلة التي انحدر منها... ألا تذكر والده؟

- نعم، كان...

أصبح واياكي مفخرةَ التلال، ومفخرةَ كامينو، وصاروا يسمّونه نصيرَ عاداتِ القبيلة وحياتِها.

***

الفصل الخامس عشر

لم يتمكَّن واياكي من النوم. تسلَّلتْ أشعّةٌ رقيقةٌ لضوء القمر من شقوقٍ في جدار الكوخ، وانتشرت فوق بقع مختلفة من الأرض. ليس صحيحاً أن تحدق بقوة في الظلام المضبب الذي تضيع فيه الحافات الواضحة لكل شيء. أراد أن يتحدث إلى أحد ما. ما كان يضغط عليه هو الرغبة في الضمان والتنفيس عن الروح. مرتين حاول أن يحدث أمه، أن يسألها، لكنه في كل مرة كان يقف أمامها، ويسمع صوتها المرتجف، فيجد نفسه يتكلم عن أشياء عامة. من الغريب أن يخلق ذلك الارتجاف في صوتها شكوكاً تنقضّ عليه.

ما الذي كان يتوق إليه؟ ما الذي كان يتمناه؟ هل يعرفه هو نفسه؟ ومع ذلك فالآمال والرغبات استمرت تلازمه، وتلاحقه طوال حياته.

لم يرغب في التفكير. غير أن الأفكار غمرت قلبه، وانبسطت أمامه فصول غريبة من حياته. كانت أخته الشابة التي ماتت مبكراً هي صديقه الوحيد الحميم. لقد أحبها إذا كان ذلك النوع من الألفة يسمى حباً. فكر أنه يحب التلال وناسها. لكنهم لم يمنحوه الألفة التي كانت أخته تمنحه إياها. يومها كان صغيراً جداً، قبل عدة مواسم من ولادته الثانية، وتساءل عن السبب الذي يدعوه لتذكُّر تلك الفترة. لكنها ماتت، والموت هو نهاية كل شيء على هذه الأرض. وبعد أن تدفن تتحوَّل إلى روح. تساءل عما إذا كانت أخته روحاً، روحاً شابّة خيِّرة. هل كانت تنظر إليه؟ استدار إلى جهة أخرى خائفاً أكثر من ذي قبل. وشعر بالذنب.

إنه رجل خرافات، يؤمن بأشياء يؤمن بها أهالي التلال. لم تؤثر فيه بعثة سيريانا التبشيرية وتغيّره. لقد حذّره والده من أن تفسده عادات الرجل الأبيض. مع أنه تساءل أحياناً: أليس إفساداً ذلك التعليم الذي يحاول نشره بين التلال؟

أراد أن ينام. وتقلّب في الفراش من جنب إلى جنب محاولاً إغلاق عينيه وإبعاد الأفكار التي لا تدعه وحده. فكّر: ثَمَّة شيء ما لا يمكن تفسيره في مجيء الرجل الأبيض الذي لم يواجِه أيَّةَ مقاومة من التلال، وها هو يخترق قلب الريف ناشراً تأثيره الذي تمكن من تمزيق الناس وتشتيتهم، وقد ماتت موثوني على المذبح العالي لهذا التمزُّق. ماتت بشجاعة. ومن المحتمل أنها ما تزال تسعى لحسم النزاع في داخلها، في محاولة للوصول إلى النور. منذ موتها مضى كل شيء من سيِّئ إلى أسوأ، ولربما كانت نداءات المعارضة والولاء تتنازع في قلوب العديد من الناس. لكنهم قليلون أولئك الذين يشبهون موثوني في شجاعتها. تساءل واياكي عن موقعه. أكان يحاول أن يخلق نظاماً ويجلب النور إلى الظلام؟ تسارعت في ذهنه صورة أخته. ثم صورة موثوني. ثم صور فتيات كثيرات، ظلال دونما شكل ثابت لها. ظلال تأتي وتذهب. تندمج أحياناً ولا تكوّن شيئاً. بعد ذلك، وللحظة واحدة غدتْ حياتُه غشاوةً بيضاء، إلا أنها لم تستمرّ سوى ثانية، ثم غطّاها ضباب، ظلام دون تحديد، وابتعدت حافّات الحياة الواضحة. استلقى ساكناً، خائفاً بعض الشيء، لا يعرف بماذا يفكر، أو كيف يجدُ له سبيلاً.

بدأ الضباب يتلاشى ببطء وبدت الحافات كأنها تتشكل. فأصبح بمقدوره أن يرى تخوم شكل يتقدم عبر الضباب الشفيف. انتظر أن يتلاشى نهائياً لكن هذا لم يحدث. بل ظل الشكل ثابتاً. ولم يكن قادراً على زحزحته. حدق فيه ملياً. ثم فُتِنَ بِه، كان شكلَ امرأةٍ لم يستطع أن يميّزها. وتلاشت أيضاً. ولم يتمكّن من النوم.

ليس حسناً أن تجلس في الفراش وتحدّق في الظلام المضبَّب.

نهض، فصرَّ السرير. ارتدى ملابسه بهدوء، بانفعال داخلي، بقلق العاشق المشغول بلقاء يوشك أن يتم مع حبيبته. مشى خارج الكوخ. أراد أن يذهب إلى ماكويو ليرى كاماو، أو أي شخص آخر، رجل قد يفهمه. رجل بمقدوره أن يتحدث إليه.

كان القمر يقظاً أيضاً، ذا شعاع باهر، بدا رقيقاً. اكتسى التل والأرض المحيطة به ببياض لامع. الأشياء الصغيرة التي تظهر عادية في النهار بدت متغيرة كما لو أنها خرجت من باطن الأرض مغرية ومخيفة معاً. أصغى إلى أصوات فوق التل لكنه لم يسمع سوى الصمت. وحين اجتاز التل عبر الأشجار والأجمات الصغيرة بدا له الصمت وضوء القمر كأنهما اتحدا في قدرة كلية واحدة نابضة بالحياة. أراد أن يشعر بالتوحد مع الكون كله، مع روح أخته، مع روح أبيه، تردد. ثم نمت الكآبة في داخله، وازدادت رغبته في الحديث إلى أحد. بدا له سطوعُ القمر الآن رقيقاً محسوساً. فاستسلم إلى سحره. فتح ذراعيه، ودّ لو يمسك القمر، ويقربه من صدره، لأنه كان متأكداً من أن القمر كان يصغي. فأراده عبيراً بارداً قربه. بدت عضلاته مرتخية، وكلُّ شيءٍ حول جسده ذهبَ توتُّره.

اضطرب من جديد. وعاد إليه التَّوق، ملأه وهزّ كلَّ كيانه لدرجةٍ شعر معها بشيء ما سينفجر في داخله. توق. توق. هل أن الحياة كلها توقٌ لا ينتهي؟ أمحكومٌ على الإنسان أن يعيش في فراغٍ غريبٍ يلاحقه كحيوان خبيث لا يدعه يتذوق طعم الراحة؟ إنه لا يعرف، وربما لم يعرف أحدٌ من قبل كيف يجب أن تكون.

واياكي خلق ليخدم القبيلة. ها هو يعيش يوماً بعد يوم من أجل أفكار الآخرين، وليس من أجل أفكاره. منذ عدة فصول وهو يحاول أن يستنزف جهده من أجل الناس، الأمر الذي ما يزال يلحّ عليه.

فجأة ظن أنه يعرف ما يريد. الحرية. أراد أن يركض، أن يركض سريعاً إلى أيّ مكان، أو يحوّم بلا هدف، يتجوَّل في كلّ مكان مثل روح. سوف يمتلك كل شيء - كلّ زهرة، كل شجرة - أو سيطير إلى القمر. تخيّل

ذلك ممكناً. فرفع بصره إلى السماء. نزف قلبه له، غير أنه لم يستطع أن يركض، ولم يستطع أن يطير.

خطر له كل ذلك بينما كان يمشي. وسرعان ما انحدر باتجاه نهر هونيا. كان صرّار الليل يواصل أصواتَه الصاخبة المتوالية. وفي قلب واياكي يتردَّد صدى التدفُّق الهادئ للنهر. أحسَّ بالارتياح. بدا الماء على غير عادته تحت ضوء القمر. اجتاز النهر. وراح يرتقي المنحدر. متَّخِذاً طريق القطيع الذي يقوده إلى قرية جوشوا - ماكويو. سيصل ويرى كاماو. من الغريب أن تبدو حياته تسير إلى جنب حياة كاماو وكنوثيا في طريق واحد. الحياة التي تأثَّرت دائماً بالأحداث ذاتها.

حين كانوا فتياناً اعتادوا أن يأخذوا قطعانهم لترعى معاً. وفي سيريانا كان الثلاثة معاً. لكنهم افترقوا لفترة قصيرة بعد ختان واياكي.

انتقل كاماو إلى عالم الرجال بعد أشهر قليلة من الانفصال عن سيريانا، والآن يعمل الثلاثة في مدرسة ماريوشوني. لبرهة قصيرة استغرق واياكي في أفكاره عن كاماو وكنوثيا وحياتهم في المدرسة.

- «أوه» - توقف فجأة. رفع بصره، كاد أن يصطدم بامرأة. لم يقل كلمة أخرى، سوى تلك الآهة الفزعة. ولم يتحرك. كانت نيامبورا تقف أمامه، فارتبك.

- أوه، أهو أنتِ؟ - قال أخيراً ليكسر الصمت فقط.

- ما عرفتك - قالت بتردّد، وألقت نظرة من خلف كتفيها إلى الوراء.

- اعذريني كنت غارقاً في أفكاري.

لم يلتق واياكي بنيامبورا كثيراً. وإذا صادف أن التقى بها فليس أكثر من لقاء غرباء. فكر واياكي باليوم الذي رآها فيه قادمة من نهر هونيا وهي تحمل فوق ظهرها يقطينة كبيرة ملئت بالماء. وقتها كان جالساً عند أرض مرتفعة، عارفاً أنها ستمر على مقربة منه. تلك اللحظة أحس بالخوف، واختفى في الدغل. ظل ينظر إليها وهي ترتقي التل بتثاقل حتى غابت،

وشعر بالحزن. كان ذلك منذ فصول مضت. لم يفكر خلالها بها. ولا حتى في هذه الليلة. بغتة تعرف واياكي إلى الشكل الذي رآه في خياله، والذي رفض أن يتلاشى.

كانت نيامبورا تخشى والدها. إذ تدرك أنه سيغضب إذا شاهدها واقفة هناك. لذا كانت وحيدة دائماً. لقد حرمها الموت من رفيقتها الوحيدة موثوني. ها هي تذهب وحدها إلى النهر، وحدها إلى الكنيسة. ومن حين لآخر كانت تقيم صداقة مع واحدة أو اثنتين من فتيات التل، لكن أية واحدة منهن لم تحل محل موثوني. غالباً ما كانت تبكي عندما تتذكرها. كما أن الأماكن التي ذهبتا إليها معاً، والأسرار التي همستا بها معاً كانت دائماً تأتيها فجأة، وتغرقها، فتشعر بالألم في أعماقها. الألم يعتصر قلبها حتى يجفّفه، فلا تذرف أية دموع. أحياناً كانت تهرع إلى نهر هونيا، وتجلس هناك، وترقب تدفق الماء. لحظتها تعود إلى البيت مع إحساسٍ بالاطمئنان. هكذا كان النهر رفيقها، خاصة في أيام الآحاد. إنه مكانها الذي تركن إليه على الدوام. كانت علاقتها بوالدها جوشوا تميل إلى الفتور. وعلى الرغم من أنها كانت تطيعه في كل شيء، وتعتقد أن موثوني ارتكبت خطأً في تمرُّدها عليه، إلا أنها لم تبرِّئه تماماً من موت أختها. إنها ما تزال تعتقد أن الختان خطيئة، وإذ ينتابها مثل هذا الهاجس تتساءل عما إذا كان الموت عقاباً من السماء أو لا. غير أنها، وبطريقة ما، لم تكن تتَّهم أختها بالإثم.

«قل لنيامبورا إني أرى يسوع».

كانت دائماً تتذكَّر تلك الكلمات وتتعلَّق بها. فتشكر واياكي الذي نقلها إليها. فكرت به. لم تكن تفهمه أبداً. كان يدرس في البعثة التبشيرية، والآن يقود العناصر المنفصلة عنها. ألم يكن معروفاً في كل مكان أن هذا الشاب هو الذي بدأ بناء المدارس؟ كانت مدرسة ماريوشوني معروفة في جميع الأرجاء. فكرت نيامبورا أن واياكي شخص مغرور. لماذا؟ لأنه حين يلتقي بها لا يتوقف أبداً ليكلِّمها، ربما يخشى والدها. إنها لا

تريد أي شيء منه على الإطلاق. إنها غالباً ما تود مناقشة موت موثوني مع شخص ما يفهمها. وكان واياكي الشخص الوحيد القريب من أختها. كما أن نيامبورا لا تستطيع أن تفكر بموثوني أبداً دون أن يخطر واياكي في ذهنها. أحياناً تمنّت لو أن واياكي يقيم في جانبهم، ذلك الشاب. القوي، الذي يعرف أشياء كثيرة، لكان بمقدورها أن تتحدث معه في مواضيع مختلفة، نادراً ما التقت به، وحين يحدث ذلك تنتظر منه أن يمنحها فرصة كي تكلمه، لكنه كان دائماً يمضي بعد تحية سريعة. رجل غريب، كانت تخاف منه، وتعتقد أنه يرفض الحديث معها لأنها ابنة جوشوا.

ثانية ألقت نيامبورا نظرة من خلف كتفيها باتجاه بيت أهلها. وهمست في نفسها: هل تتوقف أكثر أم تمضي في طريقها؟ وسمعت صوته:

- أنا ذاهب لرؤية كاماو.

- وأنا ذاهبة لرؤية جوهانا، والدي أرسلني لأخبره بأن يأتي إلى بيتنا هذه الليلة.

صمتا قليلاً. ثم ضَحِكا، خفقَ قلبُ واياكي. وقال:

- إذن، نستطيع أن نمشي معاً.

ومشيا ببطء. كان مشتّتاً لا يعرف ماذا يقول. إنه يفكر بها. كانت موثوني سبباً في لقائهما الأول.

نيامبورا طويلة. بقوام جميل. وملامح متناسقة. وتحت ضوء القمر الساطع بمقدوره أن يرى امرأةً فيها.

- ماذا ستفعل هناك؟

فكر واياكي: «ماذا سأفعل هناك؟»، وخطر له أنه لا يريد رؤية كاماو.

يريدها، لكن ليس الآن. وفكر بالناس: ماذا سيقولون لو شاهدوهما يمشيان معاً؟ في الأعلى كان القمر يحدّق بهما ويضيء الأرض. لم تكن نيامبورا مختونة، لكن هذه ليست جريمة. شيءٌ ما مرَّ بينهما كإنسانين، شيءٌ ما لا يلوّث الدين، ولا الأعراف الاجتماعية، ولا أيَّ تقليد.

- فقط لرؤية كاماو والعائلة.

أحسَّت بقليلٍ من الاستياء، إذا اعتقدت أنه ذاهب لرؤية كابوني ولمناقشة نشاطاتهم.

وصلا مكاناً ينفصل فيه طريقاهما. وقفا كأنّ شيئاً مَسكَهُما من خارجهما. ربما هو سحر القمر الذي ثبَّتهما في المكان، ودّ واياكي أن يرقص سحر وطقس القمر. تسارعت ضربات قلبه، وخفق خارج الظلام، وتسمَّرت نيامبورا وهي تنتظر، كما لو إنها تجسيدٌ لجمالٍ ساكن.

فجأةً، أحسَّ كأنَّ رغباته المتفجِّرة سوفَ تهدأ إذا تمكَّن من لمسِها، لمسِها فقط، من يدها، أو مِن شعرها، وتماسك، غير أنَّ قلقاً غريباً بدأ يتسلَّل إليه.

- أما زلت تُدرِّس؟

- نعم.

- لم أرَ مدرستك؟

- يمكنكِ أن تأتي يوماً. لكن لماذا لا تأتين غداً بعد الظهر، بعد نهاية الدوام؟ أستطيع أن آخذك في جولة.

إنه وقت مناسب، ففيه يكون المعلّمون والطلاب قد عادوا إلى بيوتهم. وافقت نيامبورا، وافترقا دون أن يتصافحا حتى تركته هناك واقفاً، يرقب اختفاءها. خطا بضع خطوات إلى أمام، ثم توقف على نحوٍ مفاجئ واستدار عائداً، فتلك الليلة لم يشعر بميل لرؤية أي شخص آخر.

***

الفصل السادس عشر

الساعة هي الرابعة ولم تظهر نيامبورا بعد. كانت المدرسة خالية تقريباً. إذ إنّ واياكي سمح للأطفال بالذهاب مبكراً، قبل موعدهم المعتاد. لأنهم اشتغلوا طوال اليوم بمَلْط جدران البناية، فاختفت الفجوات الواسعة، وبدت الجدران كما لو أنها بنيت من جديد، وغدا الكوخ أنيقاً ما عدا السقف. على أية حال، فكر، أنه سيتحدث عن ذلك في اجتماع الآباء. يجب أن يكون الاجتماع كبيراً، وأن يحضره أناسٌ من مختلف مناطق التلال، لقد رسخت ماريوشوني نفسها باعتبارها مركز الروح الجديدة المندفعة عبر التلال. ورغم صغر سنّ واياكي إلّا أنه اعتبر القائد غير الرسمي لحركة التعليم، تلك التي ستوقظ التلال حتماً. أما موعد الاجتماع فقد اتفق عليه.

انتظرها واياكي مضطرباً، ربما لن تأتي. فاستاء ولم يعد يعرف ماذا يفعل. فهو لم يفكِّر بشيء سوى لقائهما طوال ذلك اليوم. كان كلما سمع وقع أقدام تصوَّره وقع أقدامها. وكلما رأى رأساً يظهر من بعيد، خفق قلبُه بالأمل. كانت روحه وأحاسيسه مشدودة، متوتِّرة.

لم تأتِ. ولم يكن بوسعه الانتظار أكثر من ذلك. غضب وشعر بخيبة أمل. ولأول مرة فكر بأنها قد تكون الفتاة المغرورة التي صوَّرها كاماو أثناء أحاديثهما. وقتها لم يصدّقه، لكنه الآن يدرك أنَّ ذلك كان حقيقة. أيّةُ امرأةٍ مغرورة؟ ألِأنها ابنة جوشوا؟ أم لسبب آخر؟

لماذا يفكر بذلك؟ ربما خشيت من أن يكتشفها والدها. ولوقتٍ

قصير فوجئ بالهوّة القائمة بينهما، إنها كبيرة كتلك الهوّة التي تفصل بين كامينو وماكويو.

وعاد إلى البيت.

كان كوخُ أمِّه والحظيرتان إشارات تتحدَّى الزمن. تماماً كما هي منذ سنوات. أما كوخ والده فقد أحرق بعد وفاته كما تقتضي العادة، لم يكن بوسع واياكي أبداً أن يفكر في بيته دون أن تأتي صورة الرجل العجوز في ذهنه. كان من عادة والده أن يجلس في الخارج، أمام البيت حتى يتمّ حلبُ الأبقار، وتعودَ الطيور إلى أعشاشها، وتغيب الشمس. وأحياناً يجلس تحت شجرة العائلة إلى أن يهبط الظلام ويغطّي الأرض.

دغل حول الأكواخ، يمتد حتى يمتزج مع الغابة الخفيضة المنبسطة فوق المنحدر حتى نهر هونيا. خلف وعبر الوادي المواجه لتل كامينو، كان تل ماكويو المكوَّن من العديد من الأكواخ المستلقية على امتداد القمة في عناقيد صغيرة تشير إلى أُسَرٍ مختلفة. من بعيد يتراءى لك كأن الأكواخ في بيت واياكي جزءٌ من الدغل والغابة. الواقع أن المكان لم يكن دغلاً فقط، فثَمَّة حقول صغيرة تحجبها الأشجار.

الآن وقد سقطت الأمطار فإن واياكي يعرف أن الحياة الخضراء ستظهر قريباً: الفاصولياء والذرة والبازلاء سوف تتفتّح، وتنظر بازدراء إلى الجفاف الذي كان يهدِّد الريف.

نيجاهي هو فصل الأمطار الطويلة. إنه الفصل المفضّل لدى الجميع، إذ بحلوله يتأكَّدون من أن الحصاد سيكون وفيراً، وقتها تبدأ البازلاء والفاصولياء بالحياة، فتمنحان الأرض اللون والشباب، وفي الأيام المشمسة تغمرك الأوراق الخضر وبهجة الزهور البكر بالأمل.

في مثل هذه الأوقات يمكن مشاهدة النسوة في الحقول الصغيرة، يُهَذِّبنها من النباتات والأعشاب الضارَّة. كلَّا. لا يُهَذِّبنها، إنما يتحدَّثن بلغةٍ سرّية مع الغلال والتربة. وثَمَّة أغنيات مرحة تنطلق من شفاه النسوة والأطفال، فتتأرجح النباتات والأشجار المحيطة كما لو أنها تسلِّم

نفسها إلى لمسة الريح، كما لو أنها تدرك بهجة الأمهات التي بمقدورك اكتشافها من وجوههن المشرقة.

الفرح لا يعمّ النسوة فقط، إنما يعمّ الأبقار والماعز أيضاً. فهي تقفز، وتضرب الهواء بذيولها التي تلتوي بأشكال مختلفة والأطفال سعداء أيضاً، الكبار منهم يعتنون بالصغار. فتراهم يتراكضون هنا وهناك، أو يتجوّلون بلا هدف كأنّ جنونَ أو ثَمَل النحل قد استولى عليهم. لذا كانوا يركضون ويلعبون، لكنهم كانوا يحترسون من إيذاء الزهور. واياكي ما يزال يتذكّر كيف اعتاد أن يتعقّب أمه إلى الحقل الصغير حيث يتسلّق شجرة ماواريكي. هناك، من حين لآخر تنطلق صرخةٌ من رضيعٍ مهمَل، وتُسمَع عاليةً في هدوء الحقول، وكذلك صوتُ أمّه البعيد يتردّد بالحياة والقلق العميق مذكّراً الكبار بالعناية بالصغار.

في المساء يعودون إلى بيوتهم: الأب والأولاد يسوقون قطيع الأبقار والماعز. والأمهات يجلبن ما جمعن من الحقل أثناء النهار كي يؤكل في الليل. ثم يجلسون وينتظرون ما تعدّه ربّة البيت من طعام لوجبة المساء. ينشغل الأولاد عادةً في الحديث، بينما يجلس رجل البيت تحت شجرة العائلة إذا لم يهبط الظلام بعد. فيتأمّل أو يتناقش مع واحدٍ أو اثنين من الرِّجال الأكبر سنّاً الذين يقومون بزياراتٍ قصيرة في مثل هذا الوقت.

لكن أشياءَ كثيرة تغيرت خلال السنوات القليلة الماضية، إذ تهشَّم إيقاعُ الفصول. فالسماء لم تعدْ تُمطر بانتظام، والشمس بدت وكأنها تشرق لعدة شهور فقط، وجفّت الأعشاب. وإذا أمطرت السماء فالمياه تجرف التربة، التربة لم تعد تستجيب لنداءات وصلوات الناس. ربما اكتفت بالرَّجل الأبيض والموالين له في ماكويو، أولئك الذين لم يحترموا المقدَّسات.

مكث واياكي خارج البيت عدّة دقائق، تذكَّر والده، وتساءل مندهشاً: كم كان سيبدو عجوزاً لو ظلّ حيّاً حتى هذا اليوم؟ واياكي لم يكن يفهمه أبداً. لقد حاول دائماً أن يفكّ اللغز الغامض للنبوءة القديمة. هل كان

تشيغي يعتقد حقاً أن واياكي سيكون ذلك المخلِّص؟ أهو الذي سيطرد الرجل الأبيض؟ أهذا هو الخلاص؟ ثمَّ ما الذي يمكن أن يفعله مخلِّصٌ مع مجموعة الرجال الموالين لجوشوا، أولئك الذين انتموا إلى المعتقد الجديد انتماءً كلّياً؟

أجل، تمنى واياكي أن يكون قد أدرك على نحو أفضل. كثيراً ما فكّر بكابوني، ولم يتوصَّل إلى معرفة ما ينبغي أن يفعله معه. كان كابوني عضواً فعّالاً بين أتباع جوشوا. ثم جاء وقتٌ أصبح فيه الوحيد الذي انبرى لقيادة الذين انفصلوا عن سيريانا. وبعد موت تشيغي أراد أن يكون قائدَ التلال الرسمي. ربّما كان هو المخلِّص المنتَظَر، هل كان كابوني ينظر إلى نفسه كمُنقذ؟ كان تشيغي قد أخبر واياكي أنَّ من المرجَّح أنْ يكون كابوني الرجل الآخر الوحيد الذي يعرف التفاصيل الحقيقية المتعلِّقة بالنبوءة.

وكابوني عضوٌ في لجنة المدرسة القيادية. وقد أكَّد معارضته لاقتراحات واياكي في كلِّ فرصةٍ ممكنة. مرَّة حين اقترح واياكي بناءَ مراحيض، عارضه كابوني قائلاً إنَّ الدّغل هو مراحيض مناسبة. ولكن بعد أن أثنى على مقترح واياكي رجلٌ أو رجلان من الأكبر سناً ثم الاتفاق عليه. يومها ظل كابوني صامتاً حتى نهاية الاجتماع.

ما أغضب واياكي أكثر من أي شيء آخر هو أن كابوني كان دائماً يذكِّره بصغر سنه: «أيها الشاب. نحن شيوخ، رأينا الكثير، وجرّبنا الكثير...». تلك هي عادته حين يريد أن يكون مخرِّباً. لكن بعض الرجال الأكبر سنّاً كانوا يلقبونه بـ «المعلم» دلالةً على الاحترام.

عندما هبط الظلام، دخل إلى كوخه. «نيامبورا خيّبت أملي»؛ فكَّر، لكنه حين تذكَّر جوشوا والطريقة التي تنكَّر فيها لابنته موثوني غَفَر لنيامبورا عدمَ مجيئها. ثمَّ هو واياكي نفسه، هل كان متحرَّراً من الخوف؟

في أعماقه لم يكن يحبذ أن يراه كابوني واقفاً مع ابنة جوشوا. امتعض من ذلك، وتساءل عما إذا كان قد أصبح هو أيضاً عبداً للقبيلة. كان

الجميع يراقب نشاطاته لذا غدت حريته مقيّدة. أليس هذا ما كان يريده؟ الخدمة! الخدمة! كان يقف دائماً إلى جانب القبيلة مثل والده وأجداده من قبل. قَدَرٌ كان يدفعه نحو إدارة دفّة الأمور، حسناً، إذا أرادوا منه أن يقف إلى جانب القبيلة فسيفعل. لقد تنبّأ والدُه بكلّ ذلك.

شعر بالرضا عن والده. شعر بالفخر من هذا الرجل الذي وقف وحيداً، دون أن يساعده أحد، وحمل في صوته عبئاً ثقيلاً من مشاعر الناس وأفكارهم، رغم أنهم لم ينتبهوا إليه ثم تذكّره مرةً أخرى بوهج وإعجاب جديدين، لحظَتَها لم يشعر أنه مقيّد، وقرّر أن يخدم القبيلة، ويخدمها، ويخدمها...

في كوخه لا يوجد أثاثٌ كثير: سريرٌ بائس، طاولةٌ، وكرسيّ، كان الكوخ بارداً، وكلُّ شيء فيه ينطق بالوحدة. أحسَّ واياكي كمن يقتحم المكان عنوة، مخترقاً الظلام وهو يفتّش عن المصباح، ارتجف قليلاً، غير أن الوهج الذي في قلبه دفّأه.

لم يدفع له الرجال الأكبر سناً مبلغاً كبيراً، لكنه لم يعرْ ذلك اهتماماً. إنه جزء من التضحية. فيما بعد سوف يقرّون بالشكر والعرفان له. وسيكون ذلك مرتّباً كافياً، وسيمضي فيما بدأه: المدارس، والكثير من المدارس. الحصول على ثقافة الرجل الأبيض كما أخبره والده. لكنه لن يقتنع بالكثير من المدارس فقط. سوف يحتاج إلى كلية، إلى معهد من النوع الذي كان ليفنغستون يتحدث عنه دائماً. وقد يحصل على عدد أكبر من المدرسين من نايروبي، البعيدة، البعيدة جداً، تلك التي لم يشاهدها أبداً. لكن هذه المشاريع هي مشاريع للمستقبل. أما الآن فهو يحاول أن يطوِّر مدرسة ماريوشوني كي تكون مثالاً للمدارس الأخرى.

راقب اللَّهب الصغير في المصباح. كان اللهب يرتعش ويلقي ظلالاً باهتة على جدار الكوخ الأسطواني. اللهب معتم فوق الحافات. والدخان يرتفع إلى الأعلى. ثبّت نظره عليه كمن يحدّق في شيء صغير أثناء الحلم. وببطءٍ رفع إصبعه الصغير وحاول أن يلمس اللّهب. ثم

سحبه بسرعة. ليس من الحكمة أن تلعب بالنار، غضب غضباً شديداً لسبب غير محدّد. وكان طرقٌ على الباب.

- ادخل.

انفتح الباب.

- أهلاً، كنوثيا.

- واياكي!

- هل أنت بخير؟

- بخير.

ظل كنوثيا واقفاً لحظة، ثم خطا وجلس على السرير، نظر واياكي إليه، فتفادى كنوثياً نظرته. وسأل واياكي:

- هل جئت من...

- البيت.

- كيف حال أهل التل؟ أتمنى أن يكونوا بسلام؟

- كلهم بخير. كيف حال أمك؟

- لم أرها بعد. أنذهب إلى كوخها ونرى ماذا أعدت لنا من طعام؟

اتَّجها نحو كوخها. واياكي لم يفاجأ بزيارة كنوثيا، فهما غالباً ما يزور أحدهما الآخر من دون إشعار.

قال كنوثيا:

- سمعت أنك عضو في مجلس القرية.

- ليست لدي فكرة، من أخبرك؟

كان واياكي صادقاً، إذ لم يحدّثه أحد عن المجلس.

سمعت ذلك من كابوني بعد انتهاء الدوام. ويبدو أن الأكبر سناً يريدونك كاتباً في المجلس. لكن كابوني كان غاضباً. سمعته يحدِّث الجميع بأنك ما تزال شاباً، ولا يجوز أن تطّلع على أسرار القبيلة.

صمت كنوثيا. ثم بنبرةٍ فيها الكثير من الجدّية، والقليل من التحذير استأنف كلامه:

- أعتقد أن كابوني لا يحبّك، لو كنت مكانك لاحترستُ منه.

أحسَّ واياكي بالرغبة في الضحك. ومنع نفسه. تساءل عن سبب عداء كابوني له، إذ إنّه لم يقمْ بأيّ عملٍ يسيء إليه. انتهت الأم من إعداد الطعام. كان المكان كلُّه مليئاً بالكآبة. أشار كنوثيا إلى ذلك وهما يتناولان الطعام. ألقى واياكي نظرة على أمّه التي جلست بعيداً عن الموقد.

كان يحبّها. ثم إنه ولدُها الوحيد. شعر بالذنب لأنّه لم يقضِ وقتاً كافياً معها، لم يعد الأمر مثلما كان واياكي في فتوّته. وقتها اعتاد أن يجلس معها حول الموقد لفترة طويلة من الليل. وكانت تقصّ عليه الحكايات.

– أعتقد أنك مخطئ يا كنوثيا. لماذا لا يحبني كابوني، فأنا لم أفعل أي شيء يسيء إليه.

– حسد – قال كنوثيا.

وصمتا وقتاً طويلاً، بعد ذلك تحدّثا عن أشياءَ صغيرة كثيرة، عن القرى والمدرسة. وقبل أن يغادر كنوثيا قال لواياكي فجأة:

– كاماو يعتقد أنه شاهدك في ماكويو، في وقت متأخِّر من الليل الماضية.

ولم يجب واياكي.

***

الفصل السابع عشر

حين يعظ جوشوا ففي صوته شيءٌ ما آسر. إنه ينطوي على إحساس عميق بالإيمان، وبالعهد الذي قطعه على نفسه إزاء الحقائق الأخلاقية التي تكشَّفت له من خلال الكتاب المقدس، كانت كنيسته تغصّ بالناس دائماً. وكان هو القائد الروحي لأبناء الرب الذي لا خلاف عليه، لكل أولئك الذين آمنوا بالمعتقد الجديد. إنه اليوم يهدر بصوته: «لا يوجد إنسان مستقيم، لا يوجد». إنه الصوت الحاد ذاته الذي يلفت انتباه الجميع، الصوت الذي لم يفقد أياً من سحره.

ما يمكن أن يعجب به المرء في صوت جوشوا هو إخلاصه. إنه منذ أن اتجه نحو المعتقد الجديد ظل وفياً إلى ليفنغستون وربه، لم يتغيّر أو يتذبذب تزمته ولا صرامته. وإذا كان تمرُّدُ موثوني وموتُها قد ثبَّطا عزيمته فذلك ما لم يفصح عنه، وعلى أية حال فقد تبرأ منها. فلم تعد موجودة بالنسبة له. ما الذي ينبغي على المرء أن يفعله مع أبناء الشيطان؟

الحقّ أن جوشوا خرج من ذلك الاختبار أكثر إيماناً، حتى أنه يعظ الآن بحيوية أكبر. وباعتباره القائد الروحي للتلال فقد عزّز أخلاقية الكنيسة بطاقة مضافة. كل عادات القبيلة كانت سيئة، وهذا أمر محسوم بالنسبة له. إذن، ليست هناك أية تسوية أو مصالحة. وهكذا استمر جوشوا بحزمه. يلقي كلمته، ويرتل أناشيد الحج. إنه بالتأكيد الأكثر ثباتاً من الجميع. حتى تشيغي نفسه، الذي مات وهو يعارض المعتقد الجديد قد هادن بمعنى ما على الأقل، وذلك بسماحه لابنه بالذهاب إلى سيريانا.

وهو يستمع إلى عظة جوشوا كان واياكي يفكر بكابوني وبمجلس القرية الجديد. استمر جوشوا في الكلام. كان يرفع صوته مرة، ويخفضه مرة، ليشير إلى «جميع الذين ارتكبوا خطيئة، وقصَّروا في تمجيد الرب».

أجل، كان صوته صافياً، ربما أكثر صفاءً من صوت رجل في مثل سنِّه. كانت الشمس اللاهبة تزداد كثافة. وكان يمكن سماع أصوات صرير تنبعث من الصفائح المعدنية القديمة الصدئة التي سُقِّفت بها كنيسة ماكويو الصغيرة. كان الحشد متوتراً وصامتاً، يود سماع كل كلمة من رجل الرب هذا، راعيهم الذي أثبت قدرته، والذي لا تغلبه إغراءات الشيطان.

وهو جالس في الخلف كان بوسع واياكي أن يرى جوشوا بوضوح، إنه لا يعرف سبب وجوده هنا، إنها لمفاجأة حتى بالنسبة له.

«هل استبدلت أمّة آلهتها، دون أن تكون هذه من الآلهة في شيء؟ لكن قومي قد استبدلوا مجدهم لقاء ما لا ينفع... وحين تأتي إلى العهد الجديد، العهد الجديد الذي تحملونه بين أيديكم اليوم، نقرأ: وقال يسوع ابحثوا عن ملكوت الرب...».

فكرَّ واياكي: «هذا الرجل يعرف الكتاب المقدس. إنه يضَمِّنُ كلامَه مقتبَساتٍ من كتاب الرب».

«وبعد ذلك، أيُّها الإخوة والأخوات، أقول لكم، تعالوا إلى يسوع، قفوا إلى جانبه، فإذا رأيتموه وهو يساق إلى الصليب، هل تتخلّون عنه؟ هل تتنكَّرون له مثلما تنكَّر له بطرس؟ تذكَّروا أن الحياة هنا على الأرض نوعٌ من الاختبار، نوعٌ من المشقّة. سيأتيكم الشيطان في الليل، في بيوتكم، في حقولكم، أو حتى هنا في الكنيسة، وسوف يهمس في آذانكم، ويدعوكم إلى العودة إلى العادات القديمة - يا تنجوروجي ويا جوشوا - سيقول لكم، اتبعوني، هذا الطريق الواسع السهل الذي ترونه هنا هو يا بَنِيّ طريقُ الصواب. تذكَّروا، لا تصغوا إلى ذلك الصوت، دعونا نسير بقلب واحد إلى القدس الجديدة. في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا يقول المسيح:

لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ. أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ فَآمِنُوا بِي. فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ، وَإِلاَّ فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ. أَنَا أَمْضِي لأُعِدَّ لَكُمْ مَكَانًا».

«ذلك المكان جاهز الآن لكم ولي، للمخلصين، لمجموعة سعيدة من الحجاج الذين سيظلون على الطريق، ويتغلبون على جميع المشقات... واليوم أيها الأخوة، إذا سمعتم صوت الشيطان، فلا تدَعوا قلوبَكم تصغي إليه».

تلفَّتَ جوشوا حوله، بدا للحظات كما لو أنه يركِّز نظراته على واياكي. كلا. لم يكن كذلك، كان يلقي نظرةً شاملة على جميع الحاضرين. تحدَّث عن أولئك الذين وجدوا النور، لكنهم ما زالوا حتى الآن يسيرون في الظلام، تحدَّث عن أولئك الذين أرادوا أن يضعوا أقدامهم على طريقين. كيف يمكنك أن تختار طريقين معاً؟

«أخوتي، أخواتي. ليست ثَمَّة مصالحة. سيدنا المسيح لم يصالح عندما ارتقى الصليب لم يمزج طريقين، بل تمسَّك بالنور».

اضطرب واياكي، تذكر أنه كان دائماً يتساءل عما ينبغي فعله مع أناس مثل كابوني. في أي موقع يضعهم؟ ثم انتقل إلى نفسه. أين يقف هو؟ ربما لا يوجد بيتٌ في منتصف الطريق بين ماكويو وكامينو. ثم ماذا عن توحيد التلّين؟ حتى الآن لا يعرف أين موقعه، لا يعرف نفسه. وأحس بكلمات جوشوا تمس عصباً في الزاوية المظلمة من روحه، لدرجة أنه كان خائفاً، تحدث جوشوا عن التحول إلى: إنسان جديد، مخلوق جديد، حياة جديدة، رفع صوته، شجب، تضرّع، تودد، وحذَّر. ثانية شعر واياكي بالذنب: بالذنب؟ من أي شيء؟ ربما من شيء ما يتعلق بالنور، أو شيء ما يتعلق بكونه لم يخلص لصوت والده في الماضي البعيد: «كن مخلصاً للقبيلة وللطقوس القديمة». ما زال واياكي في الكنيسة. أنهى جوشوا عِظَته ولوقت قصير كان هناك صمتٌ شامل في المبنى المقدَّس. ثمَّ وبصوتٍ واحد بدأ الحاضرون يرتّلون بشكلٍ تلقائي تقريباً:

أنباء سارة هي التي

جاءت إلى مكاننا هذا،
أنباء المسيح السارّة،
أنباء مخلِّصنا.

تسلَّل واياكي إلى الخارج. كان مسروراً لخروجه بينما الآخرون ينشدون. كان قد شعر كما لو أنه متطفل أو جاسوس داخل الكنيسة. وفي الخارج أحس بقلق في أعماقه. وإذ تناهت إليه الترتيلة هجس بذلك التوق الذي لا يرتوي، لشيء ما بعيد، لشيء ما يحتوي روحه كلها. لماذا جاء إلى هنا؟ الحق إنه كان في طريقه إلى تلٍّ آخر، ولم يكن قد خطَّط أصلاً لدخول الكنيسة. لكنّ هناك حقيقةً أخرى، وهي أنه كان داخل الكنيسة. حاول أن يقنع نفسه بأن الدافع لدخوله لم يكن نيامبورا إذن، لماذا أحس بخيبة أمل عندما لم يشاهدها هناك؟

كان قد أصبح عضواً في مجلس القرية الجديد. بذلك أخبره أحد الرجال الأكبر سناً والذي أُرسِلَ إليه لهذا الغرض. المجلس لم يبدأ أعماله بعد، لذا لم يعرف واياكي عنه الكثير. لكنه يتعلَّق بالحفاظ على نقاء القبيلة والتلال. لو رآه الرجال الأكبر سناً في الكنيسة سيعتقدون أنه كان يخونهم. ومع ذلك فكر أنه لن يتخلى عنهم أبداً، سيخدمهم حتى النهاية. وبالمعرفة القليلة التي يملكها سوف ينهض بالقبيلة. أجل، سيمنحها معرفة الرجل الأبيض وأدواته للحد الذي تقوى فيه القبيلة في النهاية، وتتمكن من طرد المستوطنين والمبشِّرين. ورأى عظمة القبيلة بأبنائها وبناتها المتعلِّمين الكثيرين الذين يعيشون معاً، ويفلحون أرض أجدادهم بصفاءٍ دائم، ويواصلون الطقوس والعادات الجميلة. أولئك الذين سيدينون له جميعهم بالفضل والعرفان.

أحسَّ بتقدير لهذه الفكرة. ربما هذه هي الرسالة، الرسالة التي سينجزها المُرسَل. أجل، واياكي سيكافح، سيكافح. ابتهج بأفكاره حين تطلَّعَ إلى نُبل هذه الرؤيا. مشى بخطواتٍ خفيفة متابعاً رؤياه ذاتها.

– واياكي.

التفتَ، فاختفتْ الرؤيا.

- كاماو هل أنت بخير. تصافحا.

- بخير. من أين جئت؟

- حسناً، أوه، كنت في طريق إلى التل القادم، عندما فكّرت أن أختلس النظر وأكتشف ما يفعله رجل ماكويو العجوز في الآحاد.

- جوشوا؟

- نعم.

وقفا تحت شجرة بجانب الطريق. نظر واياكي إلى كاماو. عند ذاك مرت نيامبورا على مبعدة منهما. وثب قلب واياكي. راقبها وهي تمشي بهدوء باتجاه الوادي التالي، حتى اختفت. حوَّل بصره إلى كاماو الذي ينظر في الاتجاه الذي اتخذته نيامبورا. اهتاج واياكي على نحو ما. تذكّر ما قاله له كنوثيا. وتساءل عما إذا كان كاماو قد رآه مع نيامبورا.

- أنا ذاهب - قال واياكي. لم يجب كاماو. بدا كما لو أنه يتأمَّل شيئاً ما. قال أخيراً:

- ما رأيك بها؟

- مَن؟

- تلك الفتاة.

- أيَّةُ فتاة؟

- عجباً، نيامبورا، ألم ترها؟

- كلّا.

لعن واياكي نفسَه لأنه كذب على كاماو، لكنه في تلك اللحظة بالذات وجد نفسه في مزاج حَقود، شرير، لم ينتبه كاماو إلى ذلك أبداً إنما استمر ينظر إلى الطريق الذي اتخذته الفتاة، وعلى الفور تجسَّدت أفكارُه بقوله: «أعتقد أنها امرأةٌ جميلة»، فجأة أصبح واياكي غيوراً، غيوراً على نيامبورا.

***

كانت تنتظره عند الوادي القريب. خفق قلبها عندما رأته يدنو منها. لم تكن تعرف بالضبط ما ستقول له، إذ إنّها كانت تشعر بالذنب لإخفاقها في الذهاب إلى مدرسة ماريوشوني في اليوم الذي وعدته فيه.

وقتها أرادت أن تذهب، لكن ذلك لو حدث لكان مغامرة كبيرة، إذ كان والدها في البيت ذلك اليوم، واياكي لم يبارح ذهنها منذ أن التقيا تحت نور القمر. فكَّرت به، وتلهَّفت لرؤيته، وأشرقت عيناها لدرجة لفتت فيها انتباه أمّها، فسألتها مرّةً عمّا تحلم به.

لم تكن تعرف ما كان يحدث لها. لكنها تعرف أنها منذ ذلك اللقاء الذي حدث مصادفة لم تعد كما كانت من قبل، الآن تحس بشوق غريب لشيء ما، شيء ما، لا يستطيع حتى نهر هونيا أن يمنحه لها.

خلال الأسبوعين الأخيرين تمنت أن تلتقي به، أو أن تحيِّيه وتمضي فقط. ولم تتمكَّن من رؤيته. كما أنها خشيت من الذهاب إلى المدرسة، اليوم لم تذهب إلى الكنيسة، لذا كانت تتجوَّل بلا هدف عندما رأتْه يمشي باتجاه الوادي. ولأنه كان واقفاً مع كاماو مرَّت من مسافة آمنة.

كان واياكي مسروراً برؤيتها. إنه لم يُلْقِ أيّة نظرةٍ عليها منذ تلك الليلة. الآن تقف أمامه بهدوء وبحذر شديد. لذلك لم يتبيّنها بوضوح مثلما تبيّنها في ليلة ضوء القمر. لكنه استطاع أن يراها جميلة. اقترب منها بتردد، وبقلب خافق. ابتسمت، فكر: إنها ابتسامة جميلة.

- هل أنت بخير؟

- نعم. وأنت؟

- أنا بخير أيضاً.

صمتا، لم ينظر أحدهما بعيني الآخر مباشرةً.

- لقد انتظرتك.

- أنا آسفة، لم أستطع المجيء - ترددت قليلاً ثم قالت:

- كان لدي عمل كثير في البيت، و... ولم يتوفر لي الوقت.

فَهِمَ واياكي، أو على الأكثر، اعتقد أنه فهم، ولم يذهب في مناقشة الموضوع أبعد من ذلك.

- حسناً، بوسعك أن تأتي في يوم آخر.

- طيب، لا أعرف، ربما، إذا توفَّرت فرصة.

اختلس نظرة، رآها كيف تدير رأسها إلى ناحية أخرى. وعلى الفور أدرك أنها جاءت كي تلتقي به. تلك اللحظة ودّ أن يقول لها أنه يحبها، ولم يستطع. لكنه كان يتوق إليها، وعندما غادرها أحس برغبة في أن يضمّها إلى صدره، وأن يهمس في أذنها بأشياء كثيرة.

لم تر نيامبورا شيئاً وهي تمضي مسرعةً نحو البيت. حين وصلت شرعت تطبخ، إذ إنّ أمها وأباها سيعودان بعد قليل. أعدت الطعام كما لو كانت في حلم. واياكي لم يخبرها بشيء، ومع ذلك أحسَّت بإشراقٍ في أعماقها.

عندما عادت أمها من الكنيسة رأتها مضطربة، قالت:

- ماذا بك نيامبورا؟ هل توقف ألم معدتك؟

وتذكرت نيامبورا أن ألم معدتها هو الذي منعها من الذهاب إلى الكنيسة. أجابت بسرعة:

- لا، لم يتوقف.

كانت تعرف تماماً أنها ليست صادقة.

وفي المساء، حين عاد والدها، ذهبت إلى الفراش قائلة إن صحّتها متعبة.

***

الفصل الثامن عشر

أمضى واياكي أياماً منهمكاً في التعليم، وتنظيم المدارس، وككاتب في مجلس القرية الجديد باجتماعاته ومراسيمه. فبدا مشغولاً بالعمل ساعة إثر ساعة. وقد أصبح معروفاً في جميع أنحاء التلال. الأطفال يعرفونه ويحيّونه، وينادونه بلقب «معلمنا». كما يلقبّه الشيوخ والعجائز بـ«المعلم» أيضاً. إنه الرجل الذي تشرَّب بسِحر الرجل الأبيض، والذي سيغرق القبيلة بالحكمة والقوة. ويمنحها حياةً جديدة. كان يجد متعة في تعليم الأطفال والتعامل معهم أكثر مما يجدها في تنظيم وإدارة مجلس القرية. أحياناً كان يعيش لحظات من المشاعر الوطنية والأفكار النبيلة فيحس بالبهجة. وبرغبة في فعل أي شيء من أجل الناس.

اقترب كثيراً اليوم المقرَّر لاجتماع آباء الطلاب من جميع أرجاء التلال. وكان واياكي يفكِّر بالضغط أثناء الاجتماع باتجاه إنشاء المزيد من المدارس، مع أنه لا يعرف كيف سيحصل على المعلمين. وفكَّر أيضاً أنه قد يتمكَّن من إقناع بعضهم وجلبهم من سيريانا، وإلّا سيسافر إلى نايروبي في محاولة للحصول عليهم من هناك. ثَمَّة شيء آخر كان يبرز في ذهنه هو أنه كان يزداد قناعة كل يوم بالحاجة إلى توحيد كامينو وماكويو، فالعداء القديم سيشلّ جهوده في التعليم، لذا أراد أن يصلح بين أتباع جوشوا والآخرين. فالهوّة كانت تتَّسِع، وهو يريد أن يكون أداة التقارب بينهم، أجلْ، كلمة واحدة منه في الاجتماع القريب قد تكون بدايةً مهمّة.

سيكون الاجتماع أيضاً فرصة مناسبة لإعلان موقفه. هذه ليست خطّة. هذه قناعة، تشكّلت في البدء مثل غواية ذات صدى باهت، ثم غدت إمكانية بعيدة، والآن أصبحت حاجة، ألن يكون ذلك مغامرة بالنسبة لشعبيته النامية؟ ومع ذلك سيحاول. كان يشعر بسعادة أكبر حين يفكر بأن نيامبورا سوف تسمع موقفه وتفخر.

امتلأت الساحة المعشبة بالرجال والنساء الذين جاؤوا من كل زاوية في الريف، بعضُهم جاء ليسمع تقريراً عن تقدّم أطفاله، وبعضهم الآخر جاء ليرى مدرسة ماريوشوني الشهيرة أو لرؤية المعلم. لقد سمعوا عن الشاب لكنهم لم يروه أبداً، إنها فرصة لا تفوَّت. «المعلم»؛ هكذا تهامسوا من تلٍّ إلى تلّ. وكان اللقب يشير إلى رجلٍ واحد فقط هو واياكي. بذلك انتشرت شهرته بين المرتفعات مثل نارٍ في دغل جافّ.

لقد رأى فيه الكلّ ذلك التجسيد المجدِّد لما مضى من عزّة ونقاء.

كانت المدرسة أنيقة. شاهد الناس فيها كل شيء. شاهدوا ثمرة جهودهم، ورمز تحدِّيهم للعادات الأجنبية.

تجوَّلوا حولها، وأعجبوا بجدرانها الطينية المحكمة، وتحدَّثوا كثيراً عن حدائق الزهور الصغيرة التي انتشرت هنا وهناك فوق الأرض المعشبة. رأى الآباء ذلك باعتباره ثمارَ عملهم وعرقهم وصبرهم.

لقد أصبح بمقدور أولادهم أن يتكلَّموا لغةً أجنبية، أن يقرؤوا فعلاً، الأمر الذي تمّ بالضد من إجراء سيريانا الصارم الرافض لأيّ طفل لا يتخلى والدُه عن الشعائر القديمة.

برفقة زملائه كان واياكي الأكثر اهتماماً بالناس، اختلط معهم، وأخذهم إلى أماكن مختلفة. شرح لهم مشاريعه، عبّأ ودافع بصراحة عن خططه قبل مجيء الاختبار الحقيقي. فأعجب به الناس، وأحبوا فيه اهتمامه الكبير، والطريقة التي تحدَّث بها، كانت له كلمةٌ مع كلّ شخص، وابتسامةٌ مع الجميع. شعر بالسرور من كثيرين. لكن ليس من الجميع، ففي تلك اللحظات تكشَّف الحَسَد والحِقد.

لم يكن كابوني يحبّ واياكي، فهو نفسه قد عمل من أجل القبيلة، وقاد حركة الانفصال عن سيريانا. وإليه يرجع الفضل في بدء مدارس الناس الخاصة بهم، ثُمّ ألَمْ يكن قائداً في كل الميادين؟ كان يعتبر واياكي شخصاً تافهاً تألّق نجمه فجأة، فتىً بأفكار حمقاء، وكان واياكي يبدو مجرَّد فتى في مواجهة أي شخص مثل كابوني الذي كان عمره وتجربته يؤهّلانه لاهتمام أعظم من الناس. وهكذا جرت الأمور على نحو غير طبيعي. ربما لم يصبح كابوني عدوانياً إلى هذه الدرجة لو أن كاماو، ابنه، احتل موقع واياكي. كان كاماو معلّماً جيداً كالآخرين. وكان واضحاً أنه أكبرُ سناً من واياكي، لذلك كان ممكناً أن يصبح في موقع قياديّ أفضل، غير أن أحداً لا يستطيع أن يخمّن مدى استياء كابوني من صعود واياكي. كابوني هو الوحيد بين الناس الذي كان يعرف النبوءة. كما أنه يخشى من أن يكون واياكي هو المُرسَل. إنه يمقت ذلك.

كان من المقرَّر أن يعقد الاجتماع مبكراً، لكن مجيء الشيوخ يستغرق وقتاً طويلاً دائماً، الأمر الذي جعل الاجتماع يبدأ فعلياً بعد الظهر. افتتح واياكي الجلسة بقراءة النقاط التي سيجري بحثها وسط صمت تامّ. ومع أن صوته كان هادئاً إلا أن قلبه كان يخفق في داخله، إذ خاف من عدد العيون التي أمامه... بعد الكلمات القليلة الأولى أعلن أن الأطفال سوف ينشدون بعض أناشيد الترحيب. لم يكن واياكي هو الذي كتب الأناشيد، إنما تعلمها في سيريانا من فتى يسكن فيما وراء التلال. لكنها بالنسبة للآباء وللمعلمين الذين اجتمعوا في ذلك اليوم كانت شيئاً جديداً، شيئاً أثّر في قلوبهم، وعبّر عمّا يشعرون به:

يا أبي، ويا أمي

جهّزوني بقلمٍ وطاولةٍ من حجر

فأنا أريد أن أتعلّم

فقد ذهبت الأرض

ولم تعد هناك الأبقار والأغنام

لم تعد هناك
ما الذي تبقّى إذن؟
التعليم، التعليم.

***

أبي، لو كان لديك الكثير من الأبقار والأغنام لطلبت منك رمحاً ودرعاً.
لكني الآن
لا أريد الرمح
ولا أريد الدِّرع
أريد رمحَ ودرعَ التعليم.

تلك الكلمات البسيطة جعلت بعض العيون تذرف دمعاً، ودفعت الآباء إلى التصميم على العمل. سوف يجهدون أنفسهم، فالرجل الأبيض يسرق الأرض ببطء، ويفسد عادات القبيلة. يجب أن تتغير أشياء الآن. قد يستغرق ذلك سنوات، لكن في المدى البعيد، في المستقبل المجهول، ستختلف الأمور، فالمنقذ جاء. فتح عيون الناس، وأيقظَ الأُسود النائمة.

إنها الآن تزأر، تزأر للنصر، والأطفال يتعلَّمون، وأصواتهم ترتفع أعلى فأعلى:

يا أبي
حربُ الدرع والرمح
انتهت
ما الذي تبقّى إذن؟
معركةُ المواهب
معركةُ العقل
أنا، نحن، كلُّنا نريد أنْ نتعلّم.

أجهد الشيوخ من الرجال والنساء آذانهم كي يقبضوا على الكلمات الجميلة، وضغطت أيديهم بقوة على قلوبهم أو ذقونهم. وكابوني يتلوّى في أعماقه، وقلبُه وروحه يتوقّدان بالغضب. ذلك أنّ «الفتى» أعطى انطباعاً حسناً، بينما هو ينوي إلغاءه، لقد شوهد «الفتى» في كنيسة جوشوا، كما شوهد واقفاً مع ابنته، نيامبورا. لذا أراد كابوني أن يحبط جهوده أمام الحشد.

لكن الأطفال استمروا في الغناء، معبّرين عن صرخة الكثيرين، ومتحدِّثين بصوتٍ عالٍ عن صيحة الأجيال الصامتة في كل مكان، أجيال الذين شعروا أن نهايتهم قريبة إذا لم يكن ثَمَّة تغيير، أكانوا يؤبِّنون مجداً ميتاً؟ أكانوا يأسفون على خراب القبيلة؟ أكانوا يرحّبون بالتغييرات التي كانت تتقدم؟ كان في عيونهم أسفٌ أو توقٌ، يمكن رؤيتُهما منعكسَين في عينَي المخلِّص اللامعتين.

أنهى الطلّاب أناشيدَهم وجلسوا. عمَّ صمتٌ غريب، ثمَّ من كلّ زاويةٍ انطلق صراخ، وغنّى الجميع بصوتٍ واحد:

غيكويو ومومبي،

غيكويو ومومبي،

تركوا لنا أرضاً خصبة، بكراً.

آه، تعالوا معاً...

حين تحدَّث واياكي ثانيةً أحسَّ بالسعادة. إنها اللحظة التي سيعلن فيها عن مشاريعه، تكلّم بهدوء ووضوح. كما أن الابتهاج بالحديث إلى حشدٍ كبير جعله يشعر بالإشراق في أعماقه. حدّد باختصار خططه من أجل مدرسة ماريوشوني: السقف البالي بحاجة إلى صفائح معدنيّة جديدة. والأطفال بحاجة إلى مقاعد وأقلام وورق. ثمّ هناك الكثيرُ من المدارس التي يجب أن تُبنى، والكثير من المعلِّمين الذين يجب أن يستخدموا. وجلس قلقاً مِن ألّا يكون هدفُه واضحاً، لكن التصفيق الذي حيّاه بدّد عنه الشكّ حول استقبالِهم لخطابه القصير.

بعد لحظةٍ فقط نهض كابوني. لم يبتسم، بل نظر حوله بتحدٍّ. ها هي المعركة تبدأ الآن. كان عجوزاً لكن صوتَه ثابتٌ، قويّ، كما أنه يعرف جمهورَه جيداً، ويعرف ما يروق لهم. كان بوسعه أن يتحدَّث بالأمثال والألغاز، ولا شيء يروق أكثر من ذلك بالنسبة للشيوخ الذين ما يزالون يقدِّرون المثل البارع واللغز الذكي. وكابوني يعرف حدوده أيضاً. فهو لا يعرض عدة قضايا في وقت واحد. لذلك قرر أن يترك قضية جوشوا ليعود إليها فيما بعد كي تكون الضربة النهائية.

ذكّرهم بجدب الأرض، والأشهر الجافّة التي تركت الناس دون أن يجدوا شيئاً يأكلونه، والحصاد المتوقَّع ألّا يعطي غلّة وفيرة. ثم أتى إلى الأرض التي استولى عليها الرجل الأبيض، فتحدّث عن الضرائب الجديدة التي يفرضها المخفر الحكومي على الناس. فبدلاً من أن يقود واياكي الناس ضد هذه المشكلات الملحّة يتحدّث عن بناء المزيد من المدارس. أنُرهِق الناس بالمزيد من المدارس؟ بالمزيد من المعلمين؟ وهل أنّ ثقافة الرجل الأبيض ضرورية فعلاً؟ بالتأكيد هناك وسيلة أخرى، وهي الوسيلة الأفضل لطرد الرجل الأبيض من التلال كلّها. أكان الناس يخافون؟ ألم يتبقَّ محاربون في القبيلة؟ هو كابوني سيقودهم، وهذا هو سبب تشكيله لمجلس القرية الجديد. إنه سوف ينقذ البلاد من أثر الرجل الأبيض، وسيحافظ على نقاء القبيلة وحكمتها.

«وهل تعتقدون أن ثقافة قبيلتنا، ثقافتها وحكمتها اللتين تعلمتموهما كلّكم، هما أقلّ من ثقافة وحكمة الرجل الأبيض؟».

تحدّاهم، تحدى حاضرهم، ناشدهم بافتخارهم، برجولتهم وبولائهم للأرض.

«لا تقبلوا بقيادة الشاب، هل سمعتم أن الذَّيل يقود الرأس، والطفلَ يقودُ الأب، والشبلَ يقود الأسد؟».

صفّق قليل من الناس. وساد صمت. (لقد أثار كابوني شيئاً ما في قلوبهم أيضاً). وعلى الفور أخذوا يتكلمون فيما بينهم، بعضهم رأى

حقيقةً أكبر فيما قاله كابوني. إنهم أدرى بكونهم ليسوا جبناء. كما أن من اليسير عليهم طرد الرجل الأبيض والعودة إلى العادات القديمة! لكن آخرين، وخاصة الشباب منهم كانوا إلى جانب واياكي الذي شعر بالألم. فكابوني لامس موضعاً متقرِّحاً منه، لامس مسألةَ صغر سِنّه.

حين نهض واياكي ثانيةً عاد التحدي القديم، عادت إليه الشجاعة التي عرَّفته بين الفتيان الذين في مثل سنه. في البدء نظر إلى الناس فقط، شملهم بنظراته. ثم فتح فمه وتكلم. كان صوته يشبه صوت أبيه، كلا، كان يشبه صوت رجال ريف غيكويو القدماء المبجَّلين. هنا، عاد المخلِّصَ، الوحيدَ الذي تلامسُ كلماتُه أرواحَ الناس. استمعوا إليه، وتأثّرت قلوبهم بذبذبات صوته، ومثل راعٍ يتحدَّث إلى قطيعه تفادى أيةَ كلمةٍ قد تكون مهينة. لكن، كيف يتمكَّن من ردّ حجّة كابوني؟ واياكي قال لهم إنه ابنهم، وهم آباؤه وأمهاته. إنه لا يريد أن يقود أحداً. فالرجال الأكبر سناً هم الذين يرشدون ويقودون الشباب. وعلى الشباب أن يصغوا وأن يسيروا في طريق الحكمة. هو واياكي نفسه سوف يصغي إليهم. كل الذي يريده هو أن يخدم التلال، أن يخدم المرتفعات التي لا يمكن أن تظل نائية، لا يمكن أن تظل معزولة أبداً بعد الآن، وإذا لم ينتبه الناس إلى كلماته ومشاريعه فالمرتفعات سوف تفقد كرامتها الماضية، سوف تتخلّف كثيراً عن الريف الذي يقع فيما خلفها.

هكذا استمرّ في الكلام مشيراً إلى أهمية التعليم، إلى أهمية اكتساب كل ما يستطيع المرء اكتسابه من الحكمة. أرادوه أن يستمر، وأن يلقي عليهم كلمات الحكمة الجميلة. وإذ جلس نهضوا، وكما لو كانوا صوتاً واحداً هتفوا:

«المعلم! المعلم! نريد المعلم».

وهتف آخرون:

«يجب أن يتعلم أطفالنا، أرشدْنا إلى الطريق وسنتبعك».

ماذا يريد واياكي أكثر من ذلك؟ أحسَّ بالبهجة والسعادة، وأدرك إقرارهم بفضله.

تحدّث الرجال الأكبر سناً، والمعلمون، لكنهم لم يضيفوا أي شيء سوى امتداح المعلم. بعد ذلك انتخبت لجنة من داخل التل للإشراف على التعليم، ولرعاية المدارس الجديدة في الريف. ولم ينتخب كابوني عضواً فيها.

– كاماو، ابني.

– نعم يا أبي.

– ساقاي ترتجفان...

– لماذا؟ هل أنت مريض يا أبي؟

– نعم. لا. فقط ساقاي. إنهما منهكتان. خذ عصاي وقُدْني إلى البيت.

الذين من حولهما شاهدوا كاماو وهو يقود والده كابوني. كاماو أحد المعلمين لدى واياكي. وعلى الفور أدرك الناس مبتسمين أن كابوني مريض. والحقّ إنه لم يكن مريضاً فعلاً. كان مليئاً بالغضب. أيَرضى بهزيمةٍ أمام الجميع! أو بإذلال! أبداً. لا مجال لتصور ذلك. ولا ينبغي قط تصوُّر ذلك.

– أستطيع أن أقتله.

– تقتل مَن يا أبي؟

كانا يقفان فوق التل، نظر كابوني إلى ابنه. وقال:

– أنت شخص لا فائدة منك – انفجر بوجهه – هل أنت ابني؟ ألم يكن بمقدورك إزاحته منذ وقت بعيد؟ مَن هو حتى يكون في هذا الموقع؟

ولم يجبْ كاماو. كانت تنتابه أفكارٌ مريرة هو الآخر. هل سيبقى هو ووالده يقاسيان من سيطرة واياكي؟

***

خلال أشهر قليلة تغيّر وجه المدرسة. كما أقيمت المزيد من المدارس في عدد من المرتفعات الأخرى. واتسعت شهرة واياكي، ووثق منه الرجال الأكبر سناً. تحدثوا عنه في بيوتهم وحقولهم، حتى كابوني بدا

مستسلماً لقيادة الرجل الشاب. لقد كان ذلك ضرباً من الإيمان، خفيّاً، مذعناً. كان شيئاً ضبابياً إذا ما أدركه أحد. لكنه قائدُهم، ويعرفون أنه لن يخذلهم أبداً. كان ندّاً للرجال البيض، أولئك الذين أرادوا إبادة غيكويو ومومبي. غير أنَّ القبيلة سوف تتغلّب وتنتصر على المبشِّرين، على التجّار، على الحكومة، وعلى كلّ الذين يحاكون الغرباء.

لو كان واياكي مدركاً تماماً لهذا الإيمان في أعماقه لخشي منه. لكنه لم يكن كذلك. إذْ إنّ فكرة التعليم غَدَتْ مثل شبحٍ يلازمه. تدفعه للمضيّ قُدُماً، لأن يفعل الكثير.

حتى فيما بعد، عندما أجبره أعضاء مجلس القرية من خلال حماستهم المفرطة على أن يؤدِّي يمين الولاء من أجل نقاء ووحدة القبيلة لم يتوقَّف ليفسِّر ما إذا كان ثَمَّة خطر يكمن في قَسَمٍ كهذا. كابوني لم يعد موجوداً. وكان واياكي يرى مدارس فقط، مدارسً في كل مكان، وعطشاً يلهب حناجر العديد من الأطفال الذين يرفعون أبصارهم إليه من أجل الماء الذي يروي ظمأهم.

أراد أن يشعر الجميع بالرغبة في الحصول على هذا الماء. أراد حتى جوشوا وأتباعه أن يأتوا وينضموا إليهم. التعليم هو الحياة. دعْها تأتي. وبشعور مباغت بالذنب تذكَّر أنه نسي أن يتحدَّث عن المصالحة.

***

الفصل التاسع عشر

طوال حياته ظلَّ جوشوا يحاول كسب المزيد والمزيد من الناس إلى الدين الجديد. كما ظل يتمتع بطاقة هائلة حتى في شيخوخته. وقد ظن أنه نجح في مهمته. والحق إنه نجح في البداية. يومها جاء إليه كثيرون. وعُمِّدَ كثيرون. ثم ألم يكن مسؤولاً عن إقناع الرجال الأكبر سناً كي يرسلوا أبناءهم إلى سيريانا لسماع كلمات المسيح والتعليم على يد الرجل الأبيض؟

الآن، بدت الحياة وكأنها تعمل ضده. فكثيرون ممن انضموا إليه متحمسين قد انفضّوا عنه، وعادوا إلى تقاليدهم وشعائرهم القديمة. وكثيرون أيضاً تزوجوا من امرأة ثانية. غير أن جوشوا لم ير أي ضير في اتخاذ زوجة ثانية. كان دائماً يفكر حائراً بحقيقة أن رجال العهد القديم الذين اعتادوا السير مع الرب والملائكة كانوا يتخذون أكثر من زوجة واحدة. لكن الرجل في البعثة التبشيرية اعتبر ذلك خطيئة. فكانت خطيئة. ولم يكن جوشوا على استعداد لأن يتساءل عما يعرفه بصدد الوحي الإلهي للرجل الأبيض. فالرجل الأبيض هو الذي جلب الدين المسيحي إلى الريف.

ما يقلق جوشوا ليس فقط عودة الكثير من الناس إلى عادات القبيلة الشيطانية كالختان. بل كان بمقدوره أن ينتصر على تمرّد موثوني حتى. إنما الذي يقلقه هو التهديد القادم من صعود واياكي، قائد القبيلة، المثقَّف، الشاب. الآن وقد بنيت العديد من المدارس من خلال جهود

واياكي فإن العديد من نعاجه قد ينضم إلى قطيع واياكي دونما ضرورة ملحة. وإزاء هذه المخاوف اتصل جوشوا برجال البعثة التبشيرية كي يسمحوا له وللمخلصين الآخرين ببناء مدرسة أو اثنتين يتعلم فيها الأطفال قبل أن يذهبوا إلى سيريانا. وهكذا بنيت مدرستان، إحداهما في ماكويو والثانية قرب نيجنيا، وأحرزتا تقدماً ملحوظاً. وقد تشكلان خلال فترة قصيرة تحدّياً واضحاً لواياكي.

الاجتماع الكبير الذي عقد في كامينو فاجأ الكثيرين، وجعل جوشوا يدرك أكثر من أي وقت سابق أن قوى الشر ليست ضعيفة. ومنذ ذلك الاجتماع بدا الدخول إلى كامينو، قلعة الشيطان أمراً حيّوياً. فجندي المسيح ليس لديه ما يخشى عليه. وهكذا عقد اجتماع في كامينو لأتباع جوشوا ولأي شخص آخر رغب في الحضور.

كان الاجتماع في يوم الأحد. حضره مسيحيون من التلال المجاورة. بعضهم جاء من أماكن بعيدة، إذ إنّ أنباء انعقاد الاجتماع كانت قد انتشرت على نطاق واسع. رتّلوا الأناشيد، وسبّحوا باسم الرب، وصلّوا. وتحدث جوشوا بقدرة وحيّوية كبيرتين لدرجة أنّ عديدين قالوا فيما بعد إنه كان يتكلم بألسنة الملائكة. وقال آخرون إن ملاك الرب قد ظهر له. وقِسْمٌ منهم ما يزال يعتقد أن العذراء هي التي كانت تكلّمه.

إثر ذلك تحوّل أناسٌ قليلون إلى المعتقد الجديد، وكانت بداية حسنة، لأنها المرّة الأولى التي يصبح فيها لجوشوا أتباعٌ في كامينو. ولا شكّ أنّ آخرين سوف يتبعونهم. كان ذلك تحدّياً للرجال الأكبر سنّاً وللذين يؤيدون التقاليد القبائلية.

شاهد واياكي الاجتماع، شاهد الموالين الجدد وهم يحتشدون ويُسبِّحون، شاهد كل ذلك وهو في كوخه المواجه لمكان الاجتماع، ولم يكشف عن مشاعره إزاء التحدي الواضح، ربما لم يبالِ للأمر ثم إنه هو نفسه كان يحب بعض التعاليم المسيحية. ذلك أن عنصر الحب والتضحية قد انسجم مع حاجته الروحية. وكثيراً ما أثرت به معاناة المسيح

في حديقة جثسيماني وآلامه على الصليب. لكنه لا يريد أن يخون القبيلة، ألم يخنها فعلاً بعد؟ أراد أن يجتاز الهوّة القائمة بين جوشوا والآخرين، لأجل أي شيء؟ لم يتوقف ليجيب عن هذا السؤال. إنه الشعور الذي حدّد رسالتَه قبل الاجتماع الذي كشف عن صعود مجده، كان قد أعد نفسه لهذه الرسالة، التي هي: إنهاء النزاع بين كامينو وماكويو واستعادة وحدة القبيلة. ولكن حين سنحت له الفرصة أخفق في الإفادة منها، ولم يقل كلمته. لقد أثملته الدهشة والغضب والمفاجأة ونسي نفسه، الفرصة سنحت، ومضت، ولو كان يودُّ الاطمئنان لتحدَّث صراحةً عن الصُّلح.

«وقت آخر، مرَّة قادمة»؛ بهذا يكلِّم نفسه دائماً حين يمر بلحظات لوم كهذه. لكنه كان فرحاً بطريقة ما، فالتعليم رسالته الحقيقية، ولَعلّه يحتاج المساعدة والتعاون من الجميع حتى من جوشوا وكابوني. لقد سمّوه المخلِّص، كان والده قد تحدث عن مسيح سيأتي، من هو المسيح الذي سيأتي منقذاً ومخلِّصاً؟ من أين، وإلى أين سيقود الناس؟ ومع أن واياكي لم يتوقف من أجل أجوبة لتلك الأسئلة إلا أنه كان يرى نفسه باستمرار الشخص الذي سيقود القبيلة إلى النور. التعليم هو نور الريف، وهو ما يريده الناس، التعليم، مدارس التعليم، ولم يرَ أية علاقة بين رسالته التعليمية وبين ما كان يفعله مجلس القرية. فتعليم الجميع هو ما كان يتمناه فقط، والوحدة هي الجواب. لكنه كان يخاف أحياناً، إذ إنّ جوشوا وأتباعه قد صُنّفوا تماماً مع الرجل الأبيض. والآن مع وقاحة جوشوا الواضحة، ومع تحديه الصريح فإن واياكي لا يستطيع أن يتخيل ما سيحدث. ما الذي سيفعله مجلس القرية؟ لقد استقال واياكي منه. ولم يعد يعرف ما ستقدم عليه جماعة كابوني المتنفذة في المجلس الذي يسيطر بطريقة ما على أسرار التلال. بعد استقالته احتل كاماو موقعه. والحقيقة أن واياكي نفسه هو الذي اقترح اسم كاماو. أكان ذلك استرضاءً؟ إنه لا يعرف. كل الذي أراده هو تكريس اهتمامه وطاقته للرسالة التي شرع في تنفيذها. أما مجلس القرية فبمقدوره أن يهتم بنقاء القبيلة.

تطلّع واياكي ثانية، وشاهد الاجتماع المسيحي. استمتع كثيراً بذلك المشهد الإنساني. وخطرت له فكرة: نيامبورا قد تكون هناك. وارتجف قلبه قليلاً، إنه يضطرب دائماً حين تخطر له فكرة رؤيتها. وكلما فكر بها كثيراً أدرك حبه لها. إنه لأمر غريب بالنسبة لواياكي. إذ لم يفصح عن اهتمام واضح بالنساء، فقد تركزت كل فكرته عن الحياة والهدف فيها: خدمة القبيلة. وعلى الرغم من ندرة لقاءاتهما إلا أنه في كل لقاء كان يود إخبارها. لكنه كان يفكر أنها ستهاجمه، وستقول له إن عليه أن يخجل من نفسه. كلا، لن يغامر بذلك، فثمة هوّة بينهما. كما أنه يشعر دائماً بالارتباك حين يقف أمامها. خرج واياكي من كوخه واتخذ طريقاً معاكساً يبعده عن مكان الاجتماع. وبعد مسافة معينة انعطف يساراً، وبدأ يمشي نحو نهر هونيا. كان هناك أناس يسيرون باتجاه كامينو، مرّوا على مقربة منه، وواصلوا سيرهم.

كانوا ذاهبين إلى الاجتماع. انعطف ثانية إلى اليسار. وراح يمشي على امتداد النهر. لم تكن الشمس شاهقة في السماء. ظلال الأشجار كانت طويلة ومتقاطعة مع بعضها، ونهر هونيا يجري متدفّقاً. مشى واياكي ببطء كما لو أنه يتجه إلى مكان محدَّد. فجأةً توقّف لبرهة وجيزة. دقّ قلبُه دقَّتين سريعتين. إنها نيامبورا!

لم تكن نيامبورا سعيدة في بيت والدها. وقد بدا كلُّ يوم تمضيه هناك وكأنه يضيف ثقلاً أكبر عليها. كان قلبُها مضطرباً، وكانتْ تدرك أنَّ لا شيء في البيت يمكن أن يقنعها.

كل يوم كانت تفكّر كثيراً بواياكي وبلحظات السعادة التي تقضيها معه، وكانت تفخر بشهرته التي غالباً ما شعرت أنها تشاركه فيها. لقد غذَّت هذا الشعور في قلبها وتعلقت به كما لو أن الشهرة كانت شهرتها. ومع أن اسمه لم يذكر في بيتها كاسم موثوني لكنها تشتاق إليه دائماً، إلى سماع صوته. لقد التقيا في مناسبات قليلة جداً، أغلبها بطريق الصدفة. لماذا لا يكون بمقدورها أن تشعر بحرية اللقاء به، وفي أي مكان؟ أن

تشعر بحرية الذهاب إليه ورؤيته؟ ويوماً إثر يوم راحت تزداد قلقاً من هذا الضرب من تديُّن جوشوا. هل ستتمرّد هي أيضاً؟ كلّا. لن تفعل ما فعلته أختها. كانت تدرك أنه ينبغي أن يكون لها رب يمنح حياتها الامتلاء، رب يحل السكينة في روحها المضطربة. لذا تشبثت بالمسيح لأنه مات على الصليب، بينما حُبُّ جميع البشر يتدفَّق من عينيه الحزينتين.

تمنَّت لو أنَّ بمقدوره أن يكون قربها، للحدّ الذي تتمكَّن فيه من غَسل وتضميد جراحه. وحسدت العذراء، العذراء التي مسحت قدمي المسيح بالزيت. تضرَّعت للمسيح ألا يتركها. حتى ذلك لم يكن دائماً يقنعها، كانت تتوق إلى شخص ما تتحدث إليه، شخص ما تستطيع فعلاً أن تلمسه وتحس به، وليس المسيح الذي ارتقى إلى السماء في السنوات الغابرة، المسيح الذي بمقدوره فقط أن يتحدث إليها في الروح. لو أنها تتمكن من اللقاء الدائم بواياكي، لو أنه يتمكن من البقاء إلى جانبها لاتَّخذ المسيح معنى أوسع بالنسبة لها. لكن واياكي غدا رجلاً مهمّاً. ثم إنه في الطرف الآخر! ولربما سيستمران هكذا، يفصلهما عن بعضهما وادٍ كبيرٌ عميق، ساعتها لن يكون بمقدور المسيح إنقاذُها، ذلك أن المسيح الذي ارتقى إلى السماء بوسعه أن يكون ذا معنى لها بمقدار ما يكون واياكي معها، تلمسه، وتحس به، وتتحدث إليه، بوسعها أن تُنقَذ فقط من خلال واياكي، إذن، كان واياكي مخلِّصها، مسيحها الأسود، الشخص الموعود الذي سيأتي ويقودها في طريق النور.

قالت موثوني إنها رأت يسوع، حدث ذلك عبر عودتها إلى القبيلة، عبر تزاوج شعائر القبيلة والمسيح، موثوني رأته من خلال المعاناة، لقد ختنت وقالت إنها أصبحت امرأة، نيامبورا تريد أن تصبح امرأة أيضاً. لكنها تستطيع فقط أن تكون كذلك إنْ تكلَّمَ واياكي معها، إذا وقف قربها، وقتها سترى المسيح.

ظلت نيامبورا مع شكوكها. ولم تميز مشاعرها إزاء واياكي على أنها حب، حدثت نفسها أنها لا تحبه لأنها لا تشعر نحوه كما تشعر نحو أمها

أو نحو موثوني. غير أنها كانت تراه كشيء ما كبير، ثابت وأكيد. وإذا انهارت الأرض فسوف تتمسك به وتحيا. أحياناً كانت تبكي وتسأل الرب أن يغفر لها، إذ إنّها ما تزال تود أن تبقى مخلصة لوالدها، أن تطيعه. ثم إن واياكي بعيد جداً عنها، ولا يهتم بها، إنه معلم، قائد كبير، جهوده كلها تنصب على الأطفال الكثيرين، من مختلف أنحاء الريف الذين يذهبون الآن إلى المدرسة. وماذا بعد؟ هل أن رجلاً كهذا سيهتم بها؟ رجلٌ لديه ما يكفي من الأمور الكبيرة ليفكر بها، هل أن رجلاً كهذا يقيّد نفسه بفتاة لم تختن، ابنةُ رجل يقود الطرف الآخر؟ في مثل هذه الأوقات كانت تصلي من أجل أن تبقى مخلصة لوالدها. إنه لشيء حسن بالنسبة لها أن تبقى معه، أن تطيعه، بدلاً من المغامرة في المجهول المظلم.

ومع ذلك كانت تقلق، ويغدو الذهاب إلى الكنيسة عبئاً بالنسبة لها، خاصة برفقة والدها. كانت دائماً تتخلف عنه، وتمشي ببطء، ببطء، وأحيانا لا تذهب إلى الكنيسة، إنما إلى نهر هونيا. فهناك تجد السكينة. تصلي للرب. وتتذكر أختها.

ذلك اليوم كانت نيامبورا حزينة فلم تذهب إلى الاجتماع، مع أنه عقد في المكان المفضل لديها. لم تكن لتجد أي هدوء، أحنت رأسها إلى الأسفل، وبينما كان النهر يهمهم في أعماقه تضرعت بحرقة وسألت الرب أن يمنحها الهدوء والنور اللذين تتطلع إليهما.

خدرٌ سارٌّ شَلَّ حركةَ واياكي. توقف. اتكأ على شجرة وراقب ظهور نيامبورا. كانت في الضفة المقابلة، في مكان مسطح نظيف تخفيه إلى حد ما أدغال قصيرة. لم يستطع واياكي أن يكتشف لماذا يذكّره المكان كثيراً بالأيْكة المقدسة التي أخذه والده إليها قبل أمد طويل وكشف له عن النبوءة القديمة. هذا المكان الذي هي فيه مكان مقدس أيضاً. بدت نيامبورا كما لو أنها تنحني فوق شيء ما. كان واياكي يرقبها، تتملكه الرغبة في احتوائها. تحرك قليلاً. فأصبح قادراً على رؤيتها بوضوح. كانت تنحني بوضع من يصلي. وكان مفتوناً. ثَمَّة نوعٌ من نورٍ مقدس بدا

يُشعُّ من جسدها. سيظل المكان مقدَّساً بالنسبة له إلى الأبد. على مسافة ياردات قليلة كان المكان الذي جلس فيه يوم ختانه قبل فترة طويلة. إنه المكان الذي أراق فيه دماً، دماً أحمر، كأن المكان بحاجة لأن يستعطف أرواحاً غاضبة. عندما أدرك أنها تصلي تقدم نحوها. وهو يرقبها انتابه إحساس مخيف إذ تصور نفسَهُ وإيّاها واقفَين معاً على مذبحٍ مهيَّأَين كقربان. إنّه لشيءٌ غريب.

مناخٌ كئيب بدا كأنه يغطي المنطقة كلها. أراد أن يبتعد بسرعة دون أن يراها. كلا. ليس الآن. كل ما أراده هو أن يهرب من ذلك المناخ. إنه لا يستطيع مواجهته. ثَمَّة حضور مقتدر يكمن خلفه. الآن يحس بها خلفه. في الجانب الآخر. تحرك كأنه يريد الهرب دون أن تراه، لكن صرير غصنٍ مكسور فضحه. رفعت رأسها فشاهدته. توقف. نظر إليها، انحنت. ثم رفعت رأسها فالتقت عيونهما، ولم يتبادلا كلمة واحدة، كانت خائفة من الاهتياج الكثيف الذي تملكها. وبدا واياكي كما لو أنه يتهيأ لأن يذهب ثانيةً خائفاً منها هذه المرة. كأن البريق الحاد في عينيها كان سيحطمه. أراد أن يزيح عن نفسه تلك السطوة التي تمارس عليه فوق مذبح القربان. غير أن انفعالها كان يتنامى ليصبح نقطة فاصلة. حدثته مجبرة نفسها على الهدوء. ثَمَّة نغمة جريئة، متحدية يمكن إدراكها في صوتها، تلك النغمة رآها واياكي كما لو كانت صرخة:

- لا تهرب يا أستاذ.

انتشرت في جسده هزة مبهجة فملأته برغبة ساخنة. لقد نادته بكلمة «أستاذ» فعلاً. ذلك اللقب الذي لا يناديه به أي من أتباع جوشوا. أكانت تلك ضحكة ساخرة في صوتها؟ إنه لا يعرف، وانتظرها بنفاد صبر.

- إلى أين ذاهب؟ - سألت وهي تجتاز النهر. اضطرب. انتزع السؤالُ الصدقَ منه. لقد أراد أن يقوم بجولة قصيرة ليجد له مكاناً يستطيع منه مراقبة الاجتماع على مبعدة، أملاً برؤيتها هناك.

- أتمشّى فقط. إني أحب النهر والدغل والأشجار.

- أنا ذاهبة إلى الاجتماع!
- اعتقدت أنك هناك، إنها لمفاجأة أن أراك هنا.
- أردت فقط أن أعبر من هنا.
صمتت، ثم ضحكت بتوتّر قليل. وقالت:
- كما ترى إني أحب النهر والدغل والأشجار أيضاً، إنه مكاني المفضَّل.
- أتأتين إلى هنا دائماً؟
- ليس دائماً، أحياناً.
كان هادئاً. صمت آخر باعد بينهما. وكان جسدُه يستعر.
- أختي انتقلت إلى عالم السماء هناك - قالت بحزم، فأشعرتْه بالذنب.
- ما زلتِ تذكرينها.
- كيف أنساها؟ إني أحبّها.
- هل أنتما الاثنتان الوحيدتان في العائلة؟
- نعم. لكني وحيدة الآن.
- أنا وحيدٌ أيضاً في عائلتي. كلّ أخواتي تزوَّجن. إنما أصغرهُنّ والتي أحبها كثيراً ماتت منذ زمن بعيد، وقتها كنتُ صبياً.
أحسّت نيامبورا بارتياح لتبادل الثقة بينهما. ولم يعرف ماذا يقول بعد ذلك.
- سوف تتأخّرين عن الاجتماع.
ولم تتكلّم، ثم بهدوء، وكما لو أنها تكلِّم نفسها قالت:
- كانت شُجاعة، شجاعة جداً، هل تذكرها؟
- نعم، دائماً.
- وكلماتها الأخيرة؟
- أجل...
وعادت به ذاكرته إلى المشهد الذي حدث منذ سنوات قليلة، يوم حملوا موثوني إلى مستشفى سيريانا. فتذكَّر جسدَها الضعيف، الهشّ، وعينيها اللامعتين السوداوين، ورسالتها الأخيرة:

«قُلْ لنيامبورا إنّي أرى يسوع». الآن بمقدوره أن يراها ثانية بوضوح. وتذكّر ألمَها. كان يشعر دائماً أن موثوني وجدت شيئاً ما، شيئاً ما ملأ روحها وجعلها قادرة على تحمُّل كلِّ شيء. لقد حاولتْ أن تجدَ خلاصاً لنفسها، أرضاً أكثر ثباتاً لتقف عليها، أمّا هو، أين يقف؟ وعاوده الشَّوقُ معبِّراً عن نفسه في موجاتٍ من الرغبة بطيئة، لكنها عالية.

ثبّت بصرَه على نيامبورا. وللحظةٍ اعتقد أنه يستطيع أن يرى موثوني في الليلة التي التقيا خلالها في الظلام، عشيّة الختان والانتقال إلى عالَمَي الرجال والنساء. تقدَّم خطوةً نحو نيامبورا، ووقف قريباً منها. أخذ يدَها اليمنى في يده، وهتفَ على الفور:

- نيامبورا إني أحبّك.

في الواقع، لم يكن كلامُه هتافاً، كان همساً. لمحت نيامبورا الضوء في عينيه، وشعرت بالخوف لثانيةٍ واحدة. لم تصدّق أذنيها. شيءٌ جميل أنْ يحبَّها. ودّت أن ترمي نفسها بين ذراعيه لكنها ما تزال خائفة. ثم أحسّت بأسىً مؤلم تسلّل إلى قلبها من مكان ما. فسقطت دمعة فوق خدها الأيسر. لم تحاول أن تحبسها، وسقطت الثانية فوق خدها الأيمن. ضغط على يدها، فضغطت هي على يده، لدرجة شعر معها أنه سيموت، وفي لحظة وَلَهٍ غامرة أخذها بين ذراعيه، وضمها إلى صدره، وكانت دموعها تتساقط فوق كتفه. لم ترفض، بل تركت نفسها بين يديه، بين يدي الرجل الوحيد الذي بوسعه إنقاذها من تعاستها. ولم يتكلّم. كانا شخصاً واحداً. واعتقد أنَّه وجد ضالته فهمس لها:

- هل تتزوجينني؟

استراحت على صدره العريض. أرادت أن تقول «نعم». واشتاقت لقول هذه الكلمة. إنها لا تكلّفها شيئاً. تكلّفها همسة فقط. وأفاقت ببطء. حرَّرت نفسَها منه. وكفَّت عن البكاء.

- قولي، قولي - تضرَّع إليها بأملٍ وخوف. وحلَّ صمتٌ آخر بينهما.

- لا - قالت بنبرةٍ خافتة.

أجهدت نفسها كثيراً كي تهمس بتلك الكلمة. مع أنها كانت تدرك أنه يجب عليها قولها. إذ إنّ زواجها منه سيكون مستحيلاً إذا لم تتمرَّد. وهي لا تريد أن تتمرَّد مثل أختها. شعر واياكي بالألم:

- لماذا؟ ألا تحبينني؟

- أحبّك، أحبّك - قالت في نفسها - لكن ألا ترى أننا لا نستطيع أن نتزوج - وقالت بصوت عال - لن يسمح أبي. ولا أستطيع أن أتمرَّد عليه. إنه يعرف أننا التقينا من قبل، من خلال الإشاعات.

كان ينظر إلى ناحية أخرى، فلم يرَ الدّموع التي تدفَّقت من عينَيها. إذا استمرت كذلك فسوف تغصّ بالنشيج. لذا من الأفضل لهما أن ينفصلا. لكنها تريده. وتركه شيء مؤلم. وتحركت بسرعة قبل فوات الأوان. تركته واقفاً في الوضع ذاته، محدقاً في المكان ذاته. تألمت كثيراً، فوقفت مترددة، لكنها أدركت أنه يجب عليها أن تذهب. «نيامبورا، نيامبورا». آه... لقد ذهبت. ماذا أراد أن يقول لها؟ عاد إلى البيت لا يرى شيئاً، ولا يحس بشيء. كان يمشي فقط.

تلك اللحظة خرج كاماو من مخبئه. كانت عيناه وروحه تستعر بالحقد. لقد عانى من ذلك فبرز غضبه المتكدس ضد واياكي. إنه لم ينسَ أبداً تلك الحادثة التي أهانه فيها واياكي في السهول. إنه لن ينسى ذلك الجرح، كان يعرف تماماً أنه يكره واياكي المشهور الآن كمعلم. خاصة وأن بعضهم يقول إنه سوف ينقذ التلال. حسناً، فليكن معلمهم. فليكن منقذهم. إنه يرفضه، هذا الرجل الذي أهان والده، وبعد كل ذلك هل يتنحَّى جانباً وينظر إليه وهو يهزمه في الحب؟ كلا. كاماو يحبّ نيامبورا. كان ينتظرها دائماً. ودائماً يحوّم حولها في ماكويو آملاً أن يأتي اليوم الذي يعلن فيه لها عن حبه. لكن فرصة مناسبة لم تسنح له كي يفتح لها قلبه. ذلك اليوم سنحت فرصة عظيمة فعزم على استغلالها. كان يريد أن يحدثها عن نفسه. وكان متأكداً من موافقتها على الذهاب معه

إلى نايروبي. لكن الأحمق واياكي جاء. فانتظره كاماو حتى يذهب غير أنه أصر على البقاء. فرآهما كاماو متعانقين. وبألم شديد تأكدت له كل مخاوفه أمام عينيه. واياكي سيبقى غريمه حتى الموت.

***

الفصل العشرون

مضى واياكي من تل إلى آخر ليقابل الرجال الأكبر سناً. وهم جاؤوا إليه أيضاً وقابلوه، وشعروا بالارتياح الذي مبعثه بريق عينيه. ثَمَّة هوى كان واياكي يعيش من أجله. يقوده التعليمُ، إلهه، يريه النور، ويجعله قادراً على التغلب على المصاعب والإحباطات الشخصية. ساقه ذلك عبر التلال والوديان، عبر الغابات وظلام الليل. ولم يتوقف ليفكر في النهاية التي سيؤدي إليها كل ذلك. ولم يفكِّر فيما إذا كان الوعيُ والحماس الجديدان اللذان أسهم في خلقهما سيترفهما التعليم. أما إذا سأله أي شخص فجأة سؤالاً في ذلك الاتجاه فسوف يهتف عالياً: «الوحدة وبناء المزيد من المدارس».

لكنه كان يواجه مهمة الحصول على عدد أكبر من المعلمين للمدارس التي أنشئت حديثاً. شيء ما كان يجب أن يحدث. وسيريانا ما تزال المكان الوحيد الذي بمقدوره إعداد رجالٍ على قدر من الثقافة الضرورية ليقوموا بمهمة التعليم بين التلال. لذا قام ذات يوم برحلة مفاجئة إلى تل قرب سيريانا، حيث التقى بعض الشباب الذين في السنة الدراسية الأخيرة في البعثة التبشيرية. حدّثهم، وناشدهم، فوافقوا على مقترحاته، لكنهم طلبوا منه العودة قبل ليلة عيد الميلاد لتثبيت الإجراءات اللازمة.

في ريف غيكويو كان مجلس القرية يحقق المزيد من السلطة على الناس. أما النداء الذي انتشرت على أثره المدارس الجديدة فقد أخذ يرتفع ثانية. حافظوا على نقاء القبيلة. وكان الناس يصغون لأنهم لا يريدون الموت لقبيلتهم، كان مجلس القرية يريد القتال من أجل الأرض

التي يستولي عليها المستوطنون والمبشرون والحكومة. وراح كابوني وأتباعه ينتقلون من تل إلى آخر، يحثّون الناس على أداء يمين الولاء من أجل نقاء القبيلة. أولئك الناس الذين علموا أن معلمهم قد أدى اليمين، وأنه كان أحد قادة مجلس القرية قبل استقالته على الأقل.

لا أحد يستطيع أن يحنث بهذا اليمين. ولم يحدث أن أدى أحدٌ هذا اليمين وخان القبيلة.

استمرت المنافسة القديمة، واتسعت لتشمل تلالاً أخرى. وظل ماكويو مركز جوشوا. بينما ظل كامينو مركز القبيلة. والمعلم جاء من هنا، لكنه لا يحب أن يحسب على أي من الطرفين. إنه يسعى للصلح. ولكن منذ الاجتماعين الأخيرين مضت الأمور من سيِّئ إلى أسوأ. وبدت كل مجموعة أكثر غطرسة وأكبر ثقة بنفسها مما كانت عليه سابقاً. وأخذ جوشوا يعظ الناس بنشاط أشد من السابق. وراح أتباعه يرتّلون أناشيد اللعنة والموت للوثنيين بصرامة وتحدٍّ. وصُنِّف جوشوا على أنه عدوٌّ للقبيلة، مع سيريانا، مع المستوطنين البيض. تلك الأيام قيل إن مبشري سيريانا قد أرسِلوا إلى ريف غيكويو لتهيئة الطريق أمام المستوطنين. وها هم البيض يتدفقون داخل البلاد بأعداد كبيرة جداً. حتى أن التجار الهنود بدؤوا يتوافدون ويباشرون أعمالاً تجارية ناجحة.

كان شعور واياكي المفاجئ بالذنب، والذي بدأ حين أخفق في الحديث عن الصلح، يتنامى بازدياد. لقد ضيّع الفرصة حين كان بمقدوره أن يعلن موقفه بوضوح. الحوادث المختلطة، والقلق وكابوني كلها أمور جعلته يفقد تلك اللحظة يوم كان الناس من مختلف التلال تحت سيطرته. هل ستأتي ثانية فرصة كهذه؟ سينتظرها، سينتظر لحظة أخرى، لحظة يتحدث فيها عن الصلح، عن التسامح، والوحدة. عندها يكون قد أنجز مهمته، عندها تكون رسالته التنويرية قد تحققت من خلال التعليم. لا بأس ففي أوائل السنة القادمة سيكون هناك اجتماع آخر لآباء الطلاب، وسيقول كلمته.

واستمر يعمل بحماس يوماً بعد يوم. غير أن اللحظات التي يلوم فيها نفسه كانت تأتيه بإلحاح، وبقوة أكبر. ومع ذلك يشعر بالبهجة حين يستوقفه شيخ أو طفل ويصافحه، وابتسامة واثقة تعلو وجهه. كان سعيداً لتركه مجلس القرية، لأنه لا يستطيع إنجاز فعاليات المجلس إضافة إلى نشاطات لجنة المدارس الجديدة.

كثيراً ما فكر بنيامبورا، وشعر بالألم لرفضها له. وغالباً ما حاول طرد المسألة كلها نهائياً من ذهنه. إنه يستطيع أن ينفّذ هذا فقط عبر الانغمار في العمل.

بعد انتهاء دوام المدرسة جاء كنوثيا بسيماء من يحمل سراً.

- أود أن أتكلم معك.

- لكنك لم تحذرني سابقاً أبداً قبل أن تطلب التحدث إلي.

- رجاءً لا تمزح - قال كنوثيا متوسلاً - أعتقد أن الأمر جدّي.

- ماذا؟

- ما سمعته، هل هو صحيح؟

- أنت لم تخبرني أي شيء عنه. أنا لا أعرف.

كان بمقدور واياكي أن يرى شيئاً ما جدّياً يثقل صدر كنوثيا الذي بدا مرتبكاً.

- أنت... - وتوقف. في هذا التوقف أحس واياكي بصمت المدرسة. فالأطفال ذهبوا إلى بيوتهم. وكاماو والمعلم الجديد الذي انضم إلى ماريوشوني قد ذهبا أيضاً.

- إني أنتظرك - قال واياكي.

- يقال إنك أصبحت واحداً من أتباع جوشوا.

- أنا؟ من يقول هذا؟

- لا أحد محدد فعلاً. ربما كانت نكتة. أنت تعرف، على سبيل المثال، كم يحب أناسنا الإشاعات، قليل من الناس يتحدث هنا أو هناك بالموضوع. حسناً، إنهم يقولون إنك ذهبت إلى كنيسة جوشوا عدة مرات. وقد شاهدوك هناك.

- ذهبت مرة واحدة. ثم ما الخطأ في هذا؟

- ليس هذا فقط. يقال إنك ذهبت منذ بضعة أشهر إلى سيريانا، وتحدثت طويلاً مع الرجال البيض. أنت تريد أن تبيع الناس.

ضحك واياكي. إنه يدرك حاجته لأن يأخذ الموضوع بجدية. إنها مجرد إشاعات. يجب أن تكون تلك المرة التي ذهب فيها لرؤية الشاب قرب سيريانا ليفاتحهم بصدد التعليم في التلال. لذا قال:

- حسناً...

- و...

رفع واياكي رأسه. ثَمَّة تغير في صوت كنوثيا.

- لنجلس هناك على العشب.

مشيا بصمت. وجلسا فوق بقعة معشبة في مواجهة المدرسة. وسأل كنوثيا حالما جلس:

- أحقاً أنك تنوي الزواج من ابنة جوشوا؟

فوجئ واياكي، فوثب. إنه لم يلتقِ بنيامبورا منذ ذلك اليوم. واستعاد رفضها له. فتخدر جسده. إنها لسخرية أن يتحدث الناس عن زواجه الممكن من نيامبورا بينما هي ترفضه. كان كنوثيا يتكلم بقلق شديد:

- كن حذراً يا واياكي. أنت تعرف أن الناس يتطلعون إليك، فأنت رمز القبيلة. ولدت ثانية مع كل نقائها. إنهم يجلّونك، يعبدونك. ويبدو أنك لا تعلم شيئاً عن القَسَم الجديد. إذ إنّك مشغول جداً. إنهم ينتزعون القَسَم الجديد باسمك، باسم المعلم ونقاء القبيلة. تذكر أن كابوني يكرهك، ولو تمكن لقتلك. إنه الوحيد الذي يقوم بكل ذلك. لماذا؟ لمجلس القرية سلطة، سلطة، واسمك فيه يمنحه سلطة أكبر. اسمك سيُحطِّمك. احترسْ...

كان كنوثيا منفعلاً جداً. صوته مليء بالقلق. أرخى واياكي يده فوق كنوثيا، وقال:

- طيِّب، إنها لن تتزوجني. وأولئك لن يفعلوا شيئاً ضدّي.

- هناك شباب أنا أعرفهم، موالين لكابوني قد أقسموا على أن يحافظوا على نقاء القبيلة، وأن يعاقبوا من يخون...

- قلت لك إنها لن تتزوجني.

- إذن، الإشاعة صحيحة.

- ماذا؟

- الإشاعة التي تقول إنك ستتزوجها؟

- اسمع كنوثيا، إنها لن تقبل بي.

بعد هذا اللقاء بأسابيع قليلة ذهب. واياكي لزيارة أحد الرجال الأكبر سناً. كان الرجل صديقاً حميماً لكابوني. تحدث عن والد واياكي، وعن جَدّه. وامتدحهما لشجاعتهما. ثم أنهى كلامه بأنهما ما خانا القبيلة أبداً. عاد واياكي إلى البيت وقلبه يشرق بالفخر إزاء الأثر الذي تركه أجداده. ولكن في الليل خطر له فجأة أن الرجل الأكبر سناً قد لمّح محذِّرا. ما الذي جعل واياكي يربط ما بين هذا التحذير ومعلومات كنوثيا؟ كلما فكر كثيراً بدا له الأمر أكثر وضوحاً.

كان عيد الميلاد يقترب، وقد ترافق في هذا الفصل من السنة مع حلول الشعائر والطقوس القبائلية. واياكي لا يشارك بها كما اعتاد من قبل. إذ أصبح عمله كثيراً جداً للحد الذي لا يتمكن من إنجازه. فثمة العديد من المعلمين يأتي لرؤيته من جميع أنحاء التلال. وشيوخ وأطفال يجيئون بمختلف المشكلات ورغم ذلك كله كان يفتقد إلى الصلة مع الناس. تلك التي لا تتحقق إلّا بالمساهمة معهم في الطقس، لقد أصبح مهووساً بالمدارس، والهوّة الآخذة في الاتساع والانقسامات.

ثم حدث شيء روّع الجميع، شيء لم يحدث مثله أبداً من قبل. وهو أن كوخ أحد أتباع جوشوا الجدد قد أضرمت فيه النار. لم يتضرر أحد. لكن النار التهمت كل ما بداخله. ولم يفهم وياكي السبب. لكنه أشار إلى صلة الحادث بمجلس القرية. هل صمّم كابوني على تحطيم القبيلة،

وكل ما يعارضه؟ أحدث إدراكه هزة في جسده. إذ اعتقد فجأة أنه كان يجب ألا يستقيل من مجلس القرية. فسلطة المجلس وتأثيره في كل مكان.

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل الحادي والعشرون

حين انتهت الصلاة عادت نيامبورا إلى البيت كي تعدّ الطعام لوالدها. لكنه جاء مع أناس آخرين، فلم تتوفر لها فرصة للراحة. وبعد أن قدمت لهم شيئاً ما يأكلونه، خرجت.

لم تعرف ماذا تفعل أو أين تذهب. كل الذي عرفته هو أنها تريد أن تكون لوحدها. إنها ليست كعادتها منذ أن رفضت طلب واياكي للزواج منها. في البيت حافظت على هدوئها الظاهري، وأنجزت أعمالها الصغيرة كالمعتاد. لكنها أصبحت سريعة الغضب، وتستاء كثيراً من أوامر والدها، تمنت أن تعيش ثانية تلك اللحظة التي ارتمت فيها بين ذراعي واياكي وهي تشعر بجمال كل شيء. كثيراً ما صلّت وتضرعت كي يأتيها ويحبها وينقذها من تعاستها. هذا ما كان يحدث لها تقريباً. إنه يحبها لكنها لا تستطيع أن تتزوجه. كما أن فكرة كونها الوحيدة التي رفضته كانت تعذبها أكثر من أي شيء آخر. هل أدرك ذلك؟ وخشيت من ألّا يراها ثانية.

لماذا قالت «لا»؟ كان يمكن أن تكون سعيدة جداً لو قالت «نعم». لقد أحبته، وأرادته. إنه منقذها الوحيد. لكنه حين جاء إليها هربت منه، إذ من الصعب عليها أن تتمرد على والدها. إنه هناك دائماً كثقل فوق كتفيها. كضمير يريها طريقاً واحداً عليها أن تتبعه. إلا أنه طريق لا تودّ اتّباعه. إنها تتمنى أن تتمرد مثلما تمردت موثوني. لكنها لا تملك شجاعة موثوني. هكذا استمر الصراع في أعماقها. أحياناً كانت تود أن تذهب

وتفتش عنه، وتطلب منه أن يأخذها ثانية. سوف تهمس له: «واياكي، أحبك». وأحياناً أخرى كانت تقاتل ضد مشاعرها إزاءه، وتشعر بالفخر لعدم تخلّيها عن أبيها.

حتى ذلك الوقت لم تكن متأكّدة من أن جوشوا قد سمع عن لقائها به. ولم تفهم أبداً سبب كذبها على واياكي. «إنه يعرف أننا التقينا». ومع ذلك كانت تقنع نفسها بأن ذلك لم يكن كذباً. إذ كان لديها شعور دائم بأن جوشوا يعرف ما يحدث لها. ربما بسبب الطريقة التي ينظر بها إليها، أو الطريقة التي يحرف فيها عظته ويذكرها ويذكر الآخرين بالضرورة القصوى للابتعاد عن الوثنيين. وقبل أيام قليلة من لقائها الأول بواياكي حدثتها أمها بشكل شخصي: «واياكي شاب طيب، لكن الناس يتكلمون كما تعرفين. ونحن لا نريد مزيداً من المشكلات في هذا البيت، لا أستطيع أن أتحمل. كلا بعد موثوني...». تلك اللحظة نادتهما امرأة فلم تتوفر لنيامبورا فرصة سماع كل ما أرادت أمها أن تقوله. لكنها أدركت أن والدتها كانت تودّ واياكي، لأن ميريامو لم تنس أبداً أنه هو الذي أبدى اهتماماً كبيراً أثناء محنة موثوني، أنه هو الذي أخذها إلى المستشفى. فكانت تصلّي للمسيح كل ليلة كي يجد واياكي الخلاص وينضّم إليهم.

ذهبت نيامبورا إلى مكانها المعتاد عند نهر هونيا. وعندما اقتربت تسارع نبض قلبها. هناك. هناك في الغابة وقفت مرة وارتمت بين ذراعيه. هناك سمعت من شفتيه أنه يحبها. وفكرت أنه ربما ما يزال واقفاً هناك ينتظرها. عبرت النهر ودخلت في الدغل وهي تصلي وتأمل وتبتهل كي تعيش معه إلى الأبد!

لكنها تعرف أنه لن يكون هناك. ثم إنها لم تذهب إلى المكان منذ أن افترقا. ومع ذلك تألمت لعدم وجوده. واتهمه قلبُها بالتخلي. لكن من المؤكد أنه سيأتي ويراها، يجب أن يأتي ثانية. اختلطت تعاستها باليأس، وأحست أنها قادرة على أن تكرهه. شيء سخيف بالطبع. وفي أعماقها لامت نفسها على رفضها له.

عادت إلى الضفة المقابلة، وجلست في مكانها المفضل. على يسارها الأرض المنبسطة التي أريقت فوقها دماء الذين ختنوا. موثوني أيضاً كانت قد جاءت إلى هنا في صباح قربانها. لم تشعر نيامبورا بالاطمئنان كما في كل مرة، ولم يعد النهر يُسكِّن آلامها.

عندما حلّ المساء وبدأت الطيور تغادر المكان رجعت إلى البيت. كان والدها جوشوا واقفاً في الباب. لم تكن تحب طريقته في النظر إليها. ثَمَّة شيء ما مقلق. تركها تدخل دون أن يقول كلمة. ميريامو التي كانت في الداخل لم تكلمها أيضاً. وتبعها جوشوا:

- أين كنت؟ - كان صوته متوعداً. وكانت تخاف من والدها.

- عند النهر.

- من معك؟

- كنت وحدي - كانت ترتجف لقد ذهبت إلى النهر على أمل أن يأتي منقذها في غيمة لنجدتها. لكن واياكي لم يأت. كانت طاعتها لوالدها سبباً في فقدانها له.

- لا أحد معك؟

- نعم.

- أنت تكذبين، تكذبين.

- كنتُ وحدي يا أبي - أصرّت.

- لا تتصوَّري إني أعمى. أنا لست ذلك الكهل، ولا توهمي نفسك بأني لم أسمع شيئاً بعد. إذا سمعت أنك شوهدت مع ذلك الشيطان ثانية فاعرفي إنك لن تعيشي في هذا البيت.

- كنت وحدي - هتفت بغضب، وكادت تبكي.

- أقولها ثانية، إذا رآك أحد معه ثانية... ألم يسببوا لهذا البيت ما يكفي من الأذى؟ ثم ألا تذكرين كيف أحرقوا كوخ رجل من رجال الرب؟

- لكن...

وارتفعت حدة الوعيد في صوته:

- دعيني أراكِ معه. دعيني أراكِ معه ثانيةً.

لم تقل أي شيء آخر. هذه هي مكافأتها على قول الصدق وطاعتها له. بسبب هذه الطاعة أيضاً فقدت الرجل الوحيد الذي أحبته ومعه خلاصها. تلك الليلة لم تتمكّن من النوم. ظلت تبكي طوال الليل وتصلّي متوسّلة إلى الرب أن يقضي عليها.

***

الفصل الثاني والعشرون

أخذوا يمتدحونه في كل تل. لقد جلب لهم معلمين، وسوف يَشرَبُ أطفالُهم التعليم الذي اشتاقوا إليه من هذه الآبار الجديدة. فما معنى المدارس من دون معلمين؟ ذلك ما كان يقلق كل شخص منذ الاجتماع الحاشد الأخير. كانوا واثقين من أن واياكي سيفعل شيئاً، لكن حتى ذلك الحين ما زالت ثَمَّة شكوك لدى بعضهم. فالمعلمون لا يمكن الحصول عليهم إلا من بين مخالب سيريانا. وقد فعل واياكي ذلك.

أصبح كنوثيا يعبد واياكي، ولازمه شعور بأنه يستطيع أن يخدم في ظله إلى الأبد. واياكي هذا الرجل المتميز، هكذا وصفه كنوثيا للرجال الأكبر سناً الذين التقى بهم. فوافقوه وهزّوا رؤوسهم بمعرفة سرّية. إنه ابن تشيغي، تهامسوا فيما بينهم، إنهم يدركون أن تشيغي كان رجلاً عظيماً، حتى في شبابه قال أشياء غريبة لم يستوعبها الآخرون تماماً. ظل كنوثيا محتفظاً بآرائه السياسية المتحمسة. كان واحداً من الناس الذين يؤمنون بـ«العمل الفوري»، وهذا ما يفسر إعجابه بكابوني ومجلسه. فهم يؤمنون أيضاً بالعمل ضد الرجل الأبيض. لكن حلم المعلم العظيم عن التعليم العالي للناس قد استحوذ عليه. كيف يمكنه مقاومة قوة ذلك الحلم الممتد أمامه في صوت واياكي البطيء المؤثر؟ ليس في صوته فقط، بل في عينيه. كانت عيناه تحملان ذلك الحلم.

وكنوثيا يدرك تماماً أن واياكي يؤمن بهذه الرسالة. خشي عليه لأنه كان قادراً على رؤية أشياء بدت خفيّة بالنسبة لواياكي. إنه يستطيع أن

يدرك على سبيل المثال، أن كراهية كابوني لواياكي قد تحولت إلى رسالة، رسالة لها قوة القناعة السياسية التي كانت جزءاً مكملاً لتصور كابوني عن حرية التلال.

حين عاد واياكي من رحلته الثانية إلى سيريانا، وأعلن الأنباء السارة إلى لجنة المدارس داخل سلسلة التلال، شعر كنوثيا بدفء الفخر والابتهاج في قلبه. وشعر أيضاً أنه صغير إزاء واياكي وهو يمشي إلى جانبه.

- هل سيأتون كلهم من كيامبو؟

- لا. بعضهم من كابيتي، وموارنغا، ونايروبي. إنهم يعتزمون مساعدتنا، فهم مستاؤون من سيريانا أيضاً، ويريدون الخدمة في مدارس غيكويو المستقلة.

مشى كنوثيا وواياكي بصمت على امتداد نهر هونيا. كان واياكي مغموراً بالحرارة والحماسة اللتين استقبل بهما الرجال الأكبر سناً نتائج رحلته. نظر كنوثيا إلى وجه واياكي المقطب، وقال:

- عندما يأتون يجب أن نقدمهم في اجتماع الآباء في بداية السنة.

- نعم، نعم، سوف نقدمهم.

ثم التفت واياكي إلى كنوثيا فجأة:

- يجب أن نطوِّر التلال، يجب أن نستشعر هذه الحماسة، يجب أن نبني مدارس... وكلية، كلية كبيرة عظيمة.

لم يتأثر كنوثيا كثيراً بكلمات واياكي بقدر ما تأثر بالطريقة التي كان يلقي بها تلك الكلمات المليئة بالحماسة والقناعة. إلا أنه تساءل عما إذا كان واياكي يدري بأن الناس يتوقون إلى العمل الفوري، وعما إذا كان الحماس والإدراك الجديدان ينطويان على شيء أكثر من مجرد الرغبة المحض في التعليم. فالناس يريدون أن يتقدموا إلى أمام، لكنهم لا يتمكنون من ذلك ما دامت أرضهم مغتصبة، ما دام أطفالهم مجبرين على

العمل في التلال المستعمرة، ما دام رجالهم ونساؤهم مجبرين على دفع ضريبة الكوخ. لم يرد أن يخبر واياكي بهذا الآن، لكنه سوف يخبره به في يوم ما. لأنه كان مقتنعاً بأن واياكي هو أفضل رجل يمكنه قيادة الناس ليس فقط إلى النور الجديد من خلال التعليم، إنما إلى فرص جديدة وإلى مواقع جديدة للتعبير عن الذات من خلال الاستقلال السياسي. إنه الرجل الأفضل لقيادة مجلس القرية، إذ إنّ لروحه تأثيراً في السلطة التي يمارسها المجلس وكابوني على الناس، ما يزال حتى الآن. هل كان واياكي يدرك هذا؟ عندما لحظ كنوثيا الحماسة في عيني المعلم تساءل عما إذا كان حلمه بالنور الجديد لم يحجب نظره عن رؤية أشياء أخرى. لكنه كان يؤمن به ويود مشاركته في هذا الحلم وبمهمة تحقيقه.

غير أن كنوثيا لم يكن يعرف مدى أحلام وتصورات واياكي. كيف يمكنه أن يعرف ما لم يدخل مناطق القلب، حيث تتنازع الشكوك والمخاوف في الظلام، حيث تفقد فجأة مشهد آمالك ونجاحاتك، حيث تهتز حتى الجذور عندما تستيقظ في الليل، أو حتى عندما تمشي في ممرات الريف؟

بعد يومين، وعندما استلقى واياكي في فراشه، أحسَّ بالإنهاك في الجسد والروح. أحسَّ كأن شيئاً ما شريراً يكمن خلفه، على مسافة أقدام قليلة، متعقّباً طريق نجاحه، مهيَّأً للانقضاض عليه وتحويله إلى لا شيء. لم يكن هذا خوفاً أو حتى يأساً، إنه مجرد شعور حوّم حوله، وبعث القلق فيه. ومع ذلك تمسك بحلمه تاركاً نوره يضيء الطريق أمامه.

منذ احتراق الكوخ، قبل أيام من مغادرته إلى سيريانا، فكّر واياكي مليّاً بناسه، وتطلع إلى أمام، إلى بداية السنة الجديدة، حيث سيجتمع ثانية آباء الطلاب، عندها سيقول لهم أن يتوحَّدوا جميعاً... ولكن يتوحَّدون من أجل ماذا؟

بالنسبة له كانت ثقافة الرجل الأبيض أداةَ تنويرٍ وتقدم إذا ما استخدمت جيداً. إنه ما يزال يتذكر كلمات والده التي قالها منذ وقت بعيد، يوم وقفا

على التل، وشاهدا الريف كله يمتد أمام أعينهما: «تعلَّمْ كلَّ حكمةٍ وكلَّ أسرارِ الرَّجل الأبيض، ولا تتبع خطاياه». أكانت هذه رسالته بين التلال منذ ذلك اليوم؟ سوف يخبر الناس. والحق إنه أخبرهم. الأطفال يجب أن يتعلموا. «سوف ينهض رجل وينقذ الناس في ساعة حاجتهم».

أهو ذلك المنقذ؟ أهو الشخص الموعود؟ أم هل كان تشيغي يهلوس؟ كيف سينقذهم؟ لقد وضع تشيغي عبئاً على كتفيه، عبئاً لا يطاق. فالمنقذ هو الذي يقوم بعمل ما كبير، بشيء ما ذي سطوة تؤهله لتغيير حياة الناس. المنقذ من يقوم بعمل يبعث الارتجاف. شيء يحدث فجأة في ليلة ما ولا يستطيع أحد مقاومة سطوته. ما الذي فعله هو؟

لكنه الآن ينتظر فرصة ليهتف بما يجول في خاطره. سيقول للناس «اتَّحِدوا» في بداية السنة القادمة قريباً. وللحظة وجد نفسه يحلم. حلم حدث في لحظة. ومض في ذهنه وبدا كما لو أنه يضيء الزوايا المعتمة من روحه. حلم عن أناس يثقون ببعضهم. يجلسون متجاورين، ينشدون أغنيات الحب المنسجمة مع موسيقى تنبعث من الطيور، وقلوبهم ترقص للإيقاع الذي تحدثه ارتعاشات النهر. الأطفال يلعبون هناك، يقفزون من صخرة إلى صخرة. يَرُشّون الماء فيصِلُ رذاذُه لآبائهم وأمّهاتهم الجالسين في الظل، قريباً منهم، وهم يتحدَّثون ويرقبون. الطيور تغرّد وهي تنتقل من شجرة إلى شجرة، بينما هناك بعيداً، وسط الغابة تتّحد حيوانات الأرض المتوحشة في حلقة مستديرة. ووسط ذلك كله وقفت نيامبورا. جاء إليها الأطفال. تحدثت مع الرجال الأكبر سناً. وبدت الطيور كما لو أنها تصغي. حتى الحيوانات المتوحشة كفَّت عن الحركة ووقفت ساكنة، وارتفعت أغنيةٌ أثارت قلوبَ الجميع. أما عيون نيامبورا السود فقد عكست تطلعهم إلى حياة مستقبلية جديدة.

مدَّ واياكي يديه. أراد أن يلمس جسدها المرتعش بينما هي تقود الحشد في تلك الأغنية. ورأى أيدي الناس الآخرين، وبينهم جوشوا، تمتد إليها. وللحظة توقف جامداً مفتوناً بالمشهد. ثم تملَّكَه الرُّعب.

كانوا يسحبونها فتتقطّع أجزاءً كما لو كانت قرباناً لإله النهر الذي ما يزال يتدفّق بالحياة، بينما هم يؤدُّون هذا الطقس انتهاكاً لها. كان هو يشاركهم أيضاً. يسحبها نحوه، ويمزِّقُها وهي لا تصرخ. كانت خرساء. ثم رأى موثوني وهي تُرمى في النهر وتصيح: «أنا امرأة الآن»، ويحملها النهر في الظلام الذي لا يستطيع أحدٌ أن يسبر غوره. أطلق قلب واياكي صرخة. وأدرك أنها لم تعد موجودة، لقد اختفت تماماً. وانصرف الآخرون صامتين، لا يتكلمون مع بعضهم. كانوا يشعرون بالذنب عندما مرّوا قربه، وتجاوزوه، تفادوا النظر إليه. وبقي وحده لا يعرف ماذا ينبغي عليه أن يفعل. أيتبع موثوني أم يتبع الحشد؟ تلك اللحظة وقفت نيامبورا أمامه. ومضة من فرح أزاحت عنه الشعور بالذنب. خطا نحوها ليلمسها فرفضت. أراد أن يعترض وأن يذكّرها بتلك المرة التي سمحت له فيها أن يأخذها بين ذراعيه. لكنه تذكر أنها لم تقبل الزواج منه. لماذا رفضت؟ ألِأَنها لا ترغب في التمرُّد على والدها؟ أجل. تلك هي الكلمة: التمرُّد. وهكذا فقدها إلى الأبد بسبب طاعتها. لكن شوقه سيستمر ويستمر حتى الموت. الموت نهاية كل شيء، كان على وشك أن يفتح فمه ويقول لها إن جوشوا كان يقود الحشد الذي قطّعها أجزاءً، فتذكر أنه هو نفسه قد اختار الوقوف إلى جانب الحشد عندما قبل المطالب الشعائرية للقبيلة فأراق دمَها. أثقَلَه الذَّنب، وأفزَعَه الظلام. أراد أنْ يصرخ برعبٍ في نفسه. لقد أخفق في أنْ يدعو الناس إلى الاتحاد. لا بأس، مرة أخرى، مرة قادمة. وأفاق من نومه وهو يردِّد لاهثاً: مرة قادمة.

نفض عن نفسه رعب الحلم. كان متأكداً من أنه لم ينم. تحسَّسَ وجهه فوجده مبللاً بالعرق. نظر حول الكوخ، لم يكن الوقت متأخراً. إنه متعب فقط وبحاجة إلى راحة. وأدرك أنه لم يعد بمقدوره أن ينام، ولكن عليه أن يتخلص من أثر ذلك الحلم الذي ألزمه السرير. تمنى لو يستطيع أن يسهم بنشاط في الاحتفالات الشعائرية للقبيلة. فذلك سوف يمنحه ارتياحاً كبيراً. ويبعث فيه إحساساً يشعره بأنه ما يزال واحداً من أفراد

القبيلة، والرحلات! الختان يقترب. لم يتبقَّ له أكثر من أسبوع، إنه هذا العام يتزامن مع يوم الميلاد، أهو تَحدٍّ لجوشوا؟ كان الغناء والرقص في حركة ناشطة. ثَمَّة معنى جديد للأغاني. وغدت الفتيات غير المختونات مواضيع لهجوم عنيف. إذ يُرمَى عليهن أيُّ شيءٍ قَذِرٍ، نَجِس. فهن أشياء ليست نقيّة في القبيلة. وسوف يجلبن إلى التلال غضبَ أرواح الأجداد. لكن اليوم الذي سيختنّ فيه بالقوة سيأتي قريباً لتخليص الأرض من النجاسات، أخذ جوشوا وأتباعه يشهرون تحدّيهم، وراحوا ينشدون للمسيح وقوّته المخلِّصة، يغنون للمسيح الطفل، المولود في بيت لحم، المُقَمَّط، المُضْجَع في مِذْوَد.

النوم المبكر شيءٌ سيِّئ. إنه لا يستطيع النوم. نهض من السرير، وذهب إلى كوخ أمه. ودّ أن يخرج إلى القرية ويتحدث إلى الرجال الأكبر سناً، أو إلى من هم سِنّه. وحدّث نفسه أنه في الأيام القليلة القادمة سينغمر في حياة التلال. فإذا كان قد فقدَ نيامبورا فانه لم يفقد إيمانه في خدمة الناس.

لم تكن أمه قد آوت إلى فراشها بعد. كانت كهلةً جداً، تجلس قرب الموقد. أحس واياكي أن ضميره يَخِزُه، لأنه تركها وحيدة لفترة طويلة. فكَّر: «سأتزوج قريباً وتصبح لها رفيقة». ثم استحوذ عليه خوفٌ مفاجئ. فربما لن يتزوج. شعر واياكي كما لو أنه يتمنى أن يلقي بنفسه في أحضان أمّه المسنة ليرتاح هناك، كما في ذلك اليوم الذي هدّأته في أثناء ولادته الثانية. اضطربت مشاعرُه. ثم أحسّ بالهدوء من جديد، ولم يرغب بالبقاء طويلاً، فنهض ليذهب.

– إلى أين ذاهبٌ يا ابني؟ – سألت دون أن ترفع عينيها.

– خارج البيت يا أمي.

نظرت في عينيه الغريبتين اللتين نطقتا باهتياجٍ داخلي.

– واياكي.

واستدار بحدّة، وبخوف، حدّقت مليّاً في عينيه، وكان ارتجافٌ غريب في صوتها.

- أحقّاً ستتزوَّج ابنة جوشوا؟

كانت الإشاعات تنتشر كنارٍ في هشيم. وأزعجه هذا الكلام عن زواجه من نيامبورا. ألم ترفضْه؟ إنها مطيعةٌ لوالدها. وتساءل عمّا يجب قوله لأمه. أيخبرُها بحبّه لنيامبورا؟ وفكَّر بها. لقد خانته. لو أنها وافقت! لو أنَّ أملاً فقط! لكان في وضعٍ يواجه فيه أيَّ تحدٍ، لعرف ماذا يقول حين يواجهه شخصٌ ما بسؤال كهذا. وأحسّ بكراهية نحوها. لقد سلكت طريق الطاعة. هو أيضاً سيسلك طريق الطاعة. ولا ينفصل عن القبيلة، لقد حذَّره والده من إفساد القبيلة بعادات الرجل الأبيض، حذَّره من ألَّا يخون القبيلة. أليس الارتباط بنيامبورا خيانة؟ لن يقف إلى جانبها، ولن يشاركها، ولن يقلق أمّه بالشرح، لذا قال كلمة واحدة: «لا».

وعلى الفور كره نفسه. كان يجب أن يخبر أمه بكل شيء، أن يحدثها بتوقه السري، بحبه العارم لنيامبورا. فهي أمّ، ومن المؤكد أنها تعرف العلاج. ولكن حين فتح فمه رفضت الكلمات أن تتشكل، ولم يبقَ سوى إشراق في عينيه.

قالت أمّه بصوتها الواهن:

- أنت تعرف ماذا يعني الزواج منها. يجب ألّا تفعل ذلك، يجب أن تخاف من صوت مجلس القرية، إنه صوت الناس. وحين يتجه ضدك صوت الناس فتلك أكبر لعنة تلحق بك في حياتك.

أدرك أن لا جدوى من الشرح، فهي لن تفهمه، إذ إنّ علاقة كهذه مع فتاة ليست مختونة تعني خيانة في نظرها. وسمعا طرقاً على الباب، ودخل كامو.

- هل أنتما بخير؟

- بخير - أجاب واياكي مسروراً للمقاطعة التي أحدثها مجيئه.

– الرجال الأكبر سناً ومجلس القرية يودّون رؤيتك!

منذ استقالته لم يُدْعَ واياكي للمثول أمام مجلس القرية. نظر إلى أمه التي بدت عيناها تتوسلان، وتنطقان صرامة بـ«لا تذهب». وللحظة فكر بصحتها السيئة، وأحس أن من واجبه البقاء معها، لكنه رحّب بهذه الفرصة كي يتحدث إلى أعضاء المجلس ويتفاهم معهم. فإذا كانت الرسالة التي كلّفه بها والده في طريقها إلى التحقق، عليه أن يتعاون مع أي شخص. وقال:

– أعتقد أنّ أمي مريضة!

– من المهمّ جداً أن تكون هناك. ولو لم يكن الأمر كذلك لما جئت في هذه الساعة. إنه لا يستغرق سوى وقت قصير.

– حسناً – قال متفادياً نظرات أمه.

وخَطَوَا خارجَ الكوخ في الليل المظلم.

***

الفصل الثالث والعشرون

– لماذا يطلبني مجلس القرية؟ – سأل واياكي ثانيةً حالما خرجا من الكوخ.

– لا أعرف بالضبط – أجاب كاماو بإبهام، بل بنبرة حاسمة لا تشجع على المزيد من الأسئلة. كان ذهن واياكي مشغولاً بأمه. وتذكر الأخيلة المخيفة التي سيطرت عليه عندما كان مستلقياً في سريره. تلفَّت حوله في الظلام، وأحس برعب من شيء لا مرئي يطارده. قال:

– إنها ليلة مظلمة جداً.

– نعم. مظلمة جداً – ردّد كاماو موافقاً.

بين واياكي وكاماو لا يستمر حوارٌ فترةً طويلة ما لم يكن هناك شخصٌ ثالث. وكنوثيا كان دائماً الشخص الثالث. كان كاماو يرى في واياكي الصقر الذي يخطف منه دائماً قطعة اللحم التي يهمّ بأكلها. كيف له أن يتقدم أو ينجح إذا كان واياكي في طريقه؟ لقد كرهه، كراهية تنامت ببطء، وتراكمت بعنف كلما تقدمت السنوات. ومع ذلك ظل كاماو يشعر بأنه يزداد عجزاً في مواجهة واياكي. ولم يكن بمقدوره أبداً أن يؤهل نفسه لمواجهة كهذه.

كان الكوخ المنعزل الذي يقصدانه يقع بعيداً عن مجموعة أكواخ كابوني الطينية. في الخارج ثَمَّة ضوء خافت ينبعث من فانوس صغير وضع فوق حجر قرب موقد تتوهج فيه قطع خشبية تمنح الكوخ دفئاً ثقيل الوطأة. كان واياكي يعرف الأشخاص الرابضين عند حافات الظلام، وقد تحمَّلهم من أجل الرجال الأكبر سناً.

- هل أنتم بخير؟

- بخير.

لم يردّوا على تحيته بحرارة كما كانوا يفعلون في الماضي. ولم ينادوه بلقب «المعلم»، ذلك اللقب الذي تحول إلى اسم. جلس على مقعد من دون أذرع وتساءل في نفسه عما سيحدث.

تكلم كابوني أولاً. كان كهلاً جداً، لكن عينيه ما تزالان تحتفظان بذلك البريق الذي يجعلك تشعر بأنهما الشيء الوحيد الحيّ فيه. ومع ذلك فهو يمتلك طاقة. بمقدورك أن تكتشفها في صوته. تكلم عن التلال، عن مراسيم الانتقال إلى عالَمَي الرجال والنساء التي كانوا يتهيؤون لها. تلك العادة القديمة التي على وشك الانهيار بسبب نجاسات معينة في الريف. فالعلة بدأت بسبب جوشوا، وموت موثوني كان أول إفساد في القبيلة.

- لكن مخاوفنا ليست هذه. القلق يأتينا الآن بسبب أن نجاسة جوشوا قد مست بعضنا. إنها الروح المختبئة في جسدك هي التي تقتلك.

هنا نظر إلى واياكي نظرة ذات معنى. خدرٌ شمل المعلم عندما سمع كلام كابوني، وشلّ حركته. لم يكن يعرف بالضبط إلى أين سينتهي الكلام. لكنه باستطاعته أن يخمّن. تذكر تحذير كنوثيا، وتلميحات الرجل المسن، وأسئلة أمه. وفكرّ: «هذا كله وأنا مشغول بتعليم أطفالهم». شيء ما كالألم الممضّ بدأ يقضم روحه. عندما تسمع كلام كابوني بتلك النبرة لا يمكنك أن تتصور أنه كان من أتباع جوشوا يوماً ما.

- أجل...

كرّر كابوني ببطء. وهدوء غريب يخيم داخل الكوخ، كالهدوء الذي يسبق عاصفةً أو انفجاراً.

- شيءٌ سيِّئ عندما يكون الذي اعتبر نفسه قائداً للناس هو مَنْ تمسُّه النجاسة. شيءٌ سيِّئ، لأنه ما يزال في وضع يؤهِّلُه لتدنيس القريبين منه، لتدنيسِ ساق وجَذْرِ القبيلة. شخصٌ كهذا خطرٌ علينا، ويحتاج إلى تطهير.

صمت كابوني ثانية. استدارت عيناه داخل الكوخ، واستقرّت أخيراً على وایاكي. لم يكن باستطاعتك أن تكتشف في عينيه ما إذا كان هناك حقد أو احتقار. وتكلم بصوت هادئ، وكلمات محسوبة.

– أنت معلمنا، ولا شك أنك تتذكر تلك الفتاة، ما اسمها؟

– أية فتاة؟ – أجبر وایاكي نفسه على السؤال – لا أعرف شيئاً.

– ابنة جوشوا، ما اسمها؟ نعم، موثوني. لم تكن طاهرة ومع ذلك أخذتَها إلى المستشفى. لقد مَسَسْتَ امرأةً تموت، جسداً ميتاً، هل تطهَّرْتَ؟ لا أظن. ولكن كان يجب أن تتطهَّر. وأنت لستَ جاهلاً، بل تعرف ماذا يعني هذا للقبيلة.

أراد وایاكي أن يتكلّم، لكن كابوني أشار له أن يصمت.

– لم أكمل كلامي بعد. إذن، هذا أول شيء فعلته للقبيلة، وهو ليس صغيراً. ثم أنت لست معلماً، لست شخصاً نأتمنُه على أطفالنا لأنك منذ أن أصبحت في الموقع الذي أنت فيه الآن أخذت تعمل ضد القبيلة عن عمد. كم مرة ذهبت إلى كنيسة جوشوا؟ كم مرة؟ لا. انتظرْ. لقد ذهبت إلى سيريانا أيضاً. كم مرة؟ نحن نعرف، مرَّتين. كما أنك لم تخبر أحداً بذهابك إلى هناك. أتتوقَّع أن نصدّق أنكَ ذهبتَ للحصول على معلِّمين؟ أتتوقَّع؟ عليك أن تخبرنا عن كلّ الأسرار التي بينك وبين جوشوا وسيريانا. هل ستبيعنا إلى الرجل الأبيض؟ أنت تعرف كم قلقونَ أناسُنا، وكم هم نافدو الصبر. إنهم يتطلعون إلى قائدٍ ينقذهم من العبودية. وأنت، أنت الذي عليه أن يقودهم...

– كفى – هتف وایاكي غاضباً. ثم استدرك أنه يجب ألّا يصرخ بوجه رجلٍ أكبر سناً منه – لا أفهم ما الذي تتحدَّث عنه – حاول بصعوبة أن يجعل صوتَه هادئاً. كان يودّ لو ينهض ويصرخ «أنت أحمق، أنت أحمق». لكنه شعر بالقلق. تلوّى في أعماقه من شدّة الألم. وظلّ ملتصقاً في مقعده. تكلّم رجلٌ آخر، إنه الرجل الكهل الذي لمّح مرة لوایاكي ببضع كلمات قبل أسابيعَ قليلة.

- الخيانة، الخيانة شيءٌ سيِّئ بالنسبة لرجلٍ في موقع المسؤولية. فلعناتُ الناس سوف تنصبُّ عليه. أنتم الرجال الأكبر سناً تذكرون تغنييرا، المحارب العظيم الذي قاد القبيلة. ما حدث له هو أنَّ امرأةً من قبيلة ماساي أغوته، فأفشى أسرار قبيلته للعدو. وحطَّمتْه لعنةُ الناس. أستطيع أن أذكر وانغيرا... - وأضاف عدداً آخر من أسماء الذين لم يُخلصوا للقبيلة، وكانت النهاية أن نزل عليهم عقابُ الناس - لذلك نحذِّرُك اليوم. لذلك يجب أن تخبرنا بالحقيقة. هل أنت متزوِّج من ابنة جوشوا أم لا؟ لأننا إذا لم نعرف الحقيقة كيف نأتمنُك على أسرارنا؟ كيف نثقُ أنَّها لن تصل إلى الرجل الأبيض؟

أجل، ها هي النتيجة أخيراً. كان عليه أن يدرك ذلك. إنه الآن أمام محاكمةٍ في تلّ ماكويو، ولا يشعر بالحاجة لأن يدافع عن نفسه. ومع ذلك تحدَّث مجبِراً نفسَه على أن يظلَّ هادئاً:

- أيها الرجال الأكبر سناً. لم أكن أعرف أن اتهامات قائمة على الإشاعات كهذه بمقدورها أن تصلني من أفواهكم. أنا شاب، والشباب يجب أن يقودوا كما أعتقد. أما إذا أخطأنا فأنتم آباؤنا وبإمكانكم أن تصحِّحوا لنا، لكني أرى شيئاً ما في الاتهامات أكثر من مجرِّد الرغبة في التصحيح. أخذتُ موثوني إلى المستشفى لأنها كانت مريضة، ولا يمكن أن أتركَها تموت ما دمتُ في وضعٍ يؤهِّلُني لمساعدتها. وأنا لستُ الشخص الذي رشَّحها إلى عالَم النساء. فإذا لم تكن طاهرةً لماذا لم يعترض الأكبر سنّاً على ترشيحها، ثم، عندما ماتت لم ألمسَها أبداً. بالنسبة لسيريانا. أقولُ لكم فقط إني لم أتفاوض أبداً مع الرجل الأبيض. لقد ذهبت إلى هناك في محاولةٍ لجلب المعلِّمين لمدارسنا التي وافقتم أنتم على بنائها. وليست هناك أيّة أسرارٍ بيني وبين جوشوا، ولم أتكلَّم معه مطلقاً.

- ماذا عن ذهابك إلى كنيسته؟ - سأل كابوني.

- وما شان هذا بالناس؟ - سأل واياكي وفي صوته غضبٌ راح يتقدَّم على هدوئه.

- إنّه شأن يخصّ القبيلة والناس ونقاءهم - أجاب كهلٌ آخر.

كان كابوني ومجلس القرية يطالبونه بالوقوف إلى جانب معتقداتهم، المعتقدات التي تحطِّم رسالتَه الهادفة إلى ردْم الهوّة بين ماكويو وكامينو، بين جوشوا والآخرين. المعتقدات التي ستنهي تماماً رسالته في التنوير من خلال التعليم. كلا. لا يمكن أن يكون مهدّداً بالوقوف إلى جانب كابوني. فإذا أصبح تحت سلطة كابوني فإن عمله الذي سعى من أجله خلال السنوات القليلة الماضية سينهار نهائياً. يجب أن يجعل موقفه واضحاً. وثانيةً أجبر نفسه على أن يكون هادئاً. مكتبة ياسمين

- من شأني أيضاً نقاءُ القبيلة. من شأني أيضاً نموٌّ وتطوّر التلال. لكننا لا نستطيع أن ننجز ذلك من خلال الكراهية. يجب أن نتوحَّد، المسيحيُّون وغير المسيحيِّين، ماكويو وكامينو، لأنَّ خلاصَ التلال موجودٌ بين أيدينا.

- لكنك لم تقاتل الرجلَ الأبيض - قاطعَه رجلٌ كبير السن.

- أرضنا تؤخَذ منا ببطء، بينما نجلس نحن وشبابنا نرقب كالنساء - قال آخر.

- ثم نحن وزوجاتنا نُجبَر على دفع الضرائب - تابع الرجل الكبير السن.

- المدارس، المدارس - ناشدهم واياكي بصوت عطوف - يجب أن نعرف ما يعرفه الرجل الأبيض.

- نحتاج إلى قائد.

- قائد سياسي.

- التعليم - قال واياكي. وقاطعه كابوني بحزم:

- التعليم لا شيء. نريد إجراءً فورياً. ثم إنك لم تجبْ حتى الآن عن الأسئلة التي تقلِقُنا. ابنة جوشوا هل أنت متزوِّجٌ منها؟

نهض واياكي ساخطاً جداً. ما شأنهم بنيامبورا؟ ما شأنهم؟ أليس

باستطاعته أن يفعل ما يريد بحياته الخاصَّة؟ أليست حياتُه مِلكَه؟ لن يحدِّثهم عن نيامبورا بشيء.

– لا علاقة لنيامبورا بكل هذا. إذا كنت أحبّها فسأحبّها. وإذا ليس لديكم شيء آخر فأنا ذاهب.

– تذكَّر يمينَ الولاء.

– اليمين!

– الذي أقْسَمْتَ به.

– إنه لا يمنعني من محبّة الناس.

– إنه يمنعك من خيانة القبيلة، من كشف أسرارها، من عمل أيّ شيءٍ نجِس قد يؤدّي إلى خرابنا.

لن يناقش معهم مسألة نيامبورا، الفتاة التي رفضته. ونظر إلى كابوني. الكراهية هي كل ما يستطيع أن يكشفه كل ذلك الضوء الخافت المنبعث من الفانوس. أما الشعاع الذي في عيني كاماو فكان ينطق بانتصار صامت. الآن، تأكد واياكي من كراهية كاماو له. وانزعج كثيراً في أعماقه لإحساسه بأنه لم يخضْ معركةً ناجحة. ربما أخفق في فهم القبيلة، ربما لم يعرف إلى أين كان يقودها.

عندما تركهم وخطا خارج الكوخ كانت كلمة «خائن» تلاحقه. وتساءل عمّا إذا كان فعلاً قد شاهد نتائج الوعي الذي بعثه في التلال. غير أنَّ المرارة والخيبة امتزجتا في داخله، وقادتاه بعيداً. أحسَّ بالغضب من أيّ شخص، من أبيه، من نيامبورا، من الرجال الأكبر سناً، ومن نفسه.

شعر كابوني بالانتصار وهو يواجه الرجال الأكبر سناً:

– يا شيوخ القبيلة، قلت لكم ولم تصدقوني. إنه لم ينكر العلاقة لا مع جوشوا ولا مع الرجل الأبيض. كيف يمكن أن يستمرّ كمعلِّم؟ كيف نستمرُّ نحنُ في اتِّباعه؟ إلى أين سيقودنا؟

– كان دائماً هكذا؟ – قال أحدُهم بحزن.

- إنها الفتاة، الفتاة التي غيّرت فكرَه نحو الاتجاه الخاطئ.

- كما قلنا من قبل - علّق أحدهم. وكان مسنّاً جداً - كل هؤلاء المسيحيّون يجب أن يُختَنوا بالقوّة.

- نعم - وافق بعضهم، ليس كلهم، إذْ إنّ قسماً منهم خشي من أن يجلب مثل هذا الإجراء الدَّنَسَ إلى الأرض.

***

الفصل الرابع والعشرون

ذات مساء، بعد أيام قليلة، اندفع كنوثيا فجأةً داخل كوخ واياكي، بدا قلقاً، وينظر إلى الخلف من فوق كتفيه كمن يتوقع شخصاً ما يلاحقه، وهمس:

- واياكي.

- ماذا، كنوثيا.

سأل واياكي، وشعر بالخوف. إنه لم يرَ كنوثيا هكذا من قَبْلُ أبداً.

- ماذا فعلوا؟ - سأل كنوثيا.

- مَن؟

- أعضاء مجلس القرية.

- ماذا؟

- إنهم يُشِيْعُون أنك لم تعد معلماً - قال كنوثيا.

- أوه.

وكان صمتٌ قصير. ثم تخلَّص واياكي من الصدمة المؤقتة، وقال مجهِداً نفسه كي يظلّ هادئاً:

- اجلس من فضلك، أين سمعت هذا؟

- إنهم يتهامسون. أنت تعرف كيف ينتشر النبأ. أخبرني كاماو أن المجلس أقصاك من عملك لارتباطك بالرجل الأبيض.

أحسّ واياكي بمرارة، ذلك أن الرجال الأكبر سناً الذين كافح من أجلهم قد انقلبوا ضدّه.

- وكيف استقبل الناس النبأ؟ - سأل واياكي.

- لا أدري. لا أظن أنهم سمعوه كلهم. متى اتخذوا هذا القرار ضدّك؟

أحس واياكي بألمٍ حاد عند السؤال الأخير، أحسّ كأن كنوثيا واحدٌ من المتآمرين.

- ضدّي؟ ليس بمقدورهم إقصائي من العمل، فهذا ليس من شأنهم، إنه شان لجنة المدارس فقط. فعلاً لا أعرف شيئاً عن الأمر.

ثم وصف لكنوثيا حوادث الليلة التي دُعِيَ فيها إلى ماكويو.

- ربما كنتُ مخطئاً في أني جعلت الغضب والعاطفة يتغلّبان عليّ، والفتاة لا تحبّني حتّى.

- هذا كلُّه من صنع كابوني، إنه يكرهك. أوه، أنت لا تعرف كيف.

اسمع واياكي: أظن أن شيئاً ما سيحدث الليلة. كاماو لمّح بشيء حول الذهاب إلى بيت جوشوا، لا أعرف ما سيحدث بالضبط، لكن الشباب قد يقومون بفعل ما سيِّئ، إنهم يعتقدون أن نيامبورا هي التي أفسدتْك.

- انتظر... ماذا سيفعلون؟

- لا أدري. لكني أعتقد أنه سيكون عملاً فَظّاً، ولن يتوقَّفوا عند هذا الحدّ. قد يأتونك. إنهم يقولون إنك حنَثْتَ بالقَسَم، وأفشيت الأسرار. يجب أن تهجر الأرض، أن تهرب إلى نايروبي. أقول لك ثانية: كابوني يتابعك وسيتمكن منك، إن له تأثيراً جديداً على الرجال الأكبر سناً. إنهم لا يستطيعون مقاومة قوته. إنه بلا جذور لكنه يتحدّث عن نبوءة قديمة حول المخلِّص، يقول إنه هو ذلك المخلِّص.

نهض واياكي، تذكّر أنّ والدَه تشيغي قد أخبرَه بأنَّ كابوني فقط هو من يعرف النبوءة القديمة. ربما كان هذا سبب كراهية كابوني له. وأدرَك أنه لم يعد هناك وقتٌ يضيّعه. وقرَّر شيئاً: عليه أن يذهب ويُحَذِّر جوشوا.

- شكراً لك يا كنوثيا. يجب أن أذهب.

- إلى أين؟

- إلى ماكويو. يجب أن أُحَذِّر جوشوا، يجب ألّا ينفجرَ العنفُ بين الناس، يجب ألّا ينفجر الآن.

- لا تذهب يا أستاذ.

- يجب أن أذهب.

- لكنك لا تستطيع، ستكون لديهم حجّة لمحاكمتك كخائن إذا عرفوا ذلك.

- كنوثيا.

- نعم؟

- تتذكّر أننا نشأنا معاً.

- نعم.

كنوثيا يستطيع أن يتذكر أكثر من واياكي الذي بمقدوره أن يحدس.

- إذن، لا تعترضني - قال واياكي بصوت هادئ - ولا تظن أني لست مقرّاً بالجميل لك. إني أقدِّر اهتمامك بي كثيراً، فأنت الرجل الوحيد الذي أستطيع أن أثق به الآن. لكننا لا نستطيع أن نسمح لهذا أن يحدث لجوشوا من خلال حماقة شخص. ربما لم أفعل للقبيلة كلّ ما كنت أتمنى أن أفعله، لذا لا أريدك أن تشرك نفسك في هذا، لا تأتِ معي، إذا بقيت هنا فسوف أعود وأحدّثك، سأخبرك بما أنوي القيام به.

لم يناقش كنوثيا، إذ كان بوسعه اكتشاف الحزم خلف هدوء واياكي. وكان بوسعه أيضاً أن يرى أثر الاهتياج في عيني المعلم، لذا تركه يذهب، لكنه لم يبقَ في الكوخ، إنما ذهب أيضاً ولحق به إلى نهر هونيا.

تسلَّقَ واياكي المنحدرات قلقاً، آملاً الوصول في الوقت المناسب كي يحذِّرَهم. حاول أن يرتقي التلّ راكضاً باتجاه بيت جوشوا. إنه لم يذهب إلى هناك من قبل. ومن مسافة بعيدة استطاع أن يسمعهم ينشدون:

بينما راقب الرُّعاةُ قطعانَهم عند المساء

وكانوا يجثمون فوق الأرض،

هبطَ ملاك الرب

وأشرق المجدُ من حوله.

كان عيد الميلاد يقترب كثيراً. وكان المسيحيون يرقبون في المساء مثل أولئك الرعاة القدماء.

عندما دخل واياكي لاهثاً توقَّفوا عن الإنشاد كلّهم، ونظروا إليه. كان ظهوره بالنسبة لهم ظهوراً غريباً. وساد صمتٌ استمرّ دقائقَ قليلة، بينما كان واياكي يحاول استعادة أنفاسه. لكنه شعر بحماقته. مِمّ جاء يحذِّرُهم؟ بماذا سيخبر رجالَ جوشوا؟ كانوا يجلسون حولَ طاولة ويرتِّلون إلى الرب، منتظرين المسيح.

– آسف لمقاطعتي لقاءكم... لكني... لكني أعتقد أنَّكم في خطر. إنهم يعتزمون القيام بعمل ما ضدّكم هذه الليلة أو نهار الغد.

– مَن؟ – سألت عدّة أصوات.

– كابوني ورجاله، مجلس القرية. لا أدري ماذا بوسعكم أن تفعلوا، لكن...

– لا تسألنا ماذا بوسعنا أن نفعل – زأر جوشوا، نهض واقفاً، وحدّق في واياكي – كلّ هذا كذب – إنهما يواجهان بعضهما لأول مرّة. الآخرون كانوا يرقبون مندهشين، خائفين، متسائلين – اخرجْ، اخرج من البيت، ها أنت تأتي لتغوي البنت الوحيدة التي بقيت لي. لن أنسى أبداً ما فعلتَ بموثوني.

إنها المرة الأولى التي يذكر فيها جوشوا موتَها علناً. أحس واياكي بالألم، كأن رفض تحذيرِه الصّادق النيّة قد كشفَ له فجأةً عُمق الهوّة الفاصلة بينه وبين جوشوا، تلك التي قد لا يردِمُها أحد. لحظتها أدرك سبب رفض نيامبورا له. وشعر بالسخرية والإهانة اللَّتين تعرَّض لهما أمام أولئك الناس، أمام الفتاة التي يحبّ. كان قد رأى نيامبورا جالسةً قرب أمّها ميريامو.

– لقد قمتُ بواجبي. كنتُ أحاول إنقاذَكم من الخطر – كان في صوته ارتجافٌ خفيف.

– أنقذْ نفسَك أوّلاً، أنقذْ نفسَك من العقاب الآتي. ماذا تريد في بيتي، أنت الذي عملت دئماً ضدّ أناس الرب؟

فجأة أدار واياكي ظهره لهم. فتح الباب وخرج. ألقى ضوءُ البيت أشعَّتَه عليه، فانكشف وحيداً يواجه الظلام في الخارج.

عندما شاهده كاماو ورجاله الأربعة الكامنين في الظلام، شهقوا بالخوف وعدم التصديق. لم يكن كاماو قد أدرك أن واياكي مضى بعيداً في خيانة الناس. الآن بات مقتنعاً بأنه أكبر عدوٍّ للقبيلة. لم يعد بمقدوره اعتقال نيامبورا كما أمره مجلس القرية. كلّا، لن يعتقلها الآن، سيعود ويخبر المجلس بما رأى. إنها لم تعد معركة شخصيّة، إنما حربٌ بين واياكي والقبيلة.

***

رأت نيامبورا واياكي وهو يدخل. رأت الحزن والقلق في وجهه: فوثب قلبها مضطرباً. هناك يقف رَجُلُها، هناك يقف واياكي، المعلِّم، مسيحُها الأَسوَد الذي أرسلَتْه السماء بعد وفاةِ موثوني لنجدتها من الخراب. كانت تعرف أنّه يحبّها، لقد سمعت تلك الكلمة من شفتَيه. ومُنذ ذلك اليوم راحت تفكر به في الليل والنهار. ولم تهتم لمنع والدها لها من الوقوف معه. فجوشوا يستطيع السيطرة على جسدها، لكنه لا يستطيع السيطرة على قلبها. وهكذا استمرت تمشي معه يوماً بعد يوم، تلامسه، وتضمّه إليها كما تحبّ. عاشت في حلم. كانت معه دائماً، وأحياناً كان الابتعاد عنه يؤلمها، ويؤذيها، وقد يبكيها. لأنها تشتاق إليه، تريده أن يكون قريباً منها طيلة الوقت. وصرخت:

«واياكي، أنت لي. عدْ إليّ».

لكنّه لم يأتِ. حالَ بينهُما واجبُها إزاءَ والدِها. وقف بينهما دِينُ الحب والغفران. كلّا، لا يمكن أن يكون ذلك دِينَ الحبّ أبداً، أبداً. فدِينُ الحبّ في القلب. أما الدِّينُ الآخر فهو دِينُ جوشوا الذي كان يسير في الاتجاه المعاكس لروحها وينتهك الحب. إذا أدَّت عقيدة جوشوا وليفنغستون

إلى الانفصال فهذا يعني أنها ليست عقيدةً خيّرة. إذا حالت بين أبٍ وابنتِه لدرجةِ أنّ موتَ ابنته لا يؤثّر فيه فهذا يعني أنها تؤدّي عملاً لا إنسانياً. لقد أرادت نيامبورا الدِّينَ الآخر، الآخر الموحِّد، الجامع للشَّمْل، الصوتَ الذي تكلَّم منذ القدم:

«تعالوا إليَّ يا من تكِدُّون مثقَلين بالأعباء، فأنا أمنحُكم السَّكينة».

هدّأها ذلك الصوت، وأرادتْ أنْ تسمَعَه ثانيةً وثالثةً، وهي جالسةٌ قُربَ نهر هونيا، تُصغي إلى ارتعاشات مياهه التي يردّد صداها النبضَ الخفيّ لقلبها، وتذكّرت:

«فَيَسْكُنُ الذِّئْبُ مَعَ الْخَرُوفِ، وَيَرْبُضُ النَّمِرُ مَعَ الْجَدْيِ،
وَالْعِجْلُ وَالشِّبْلُ وَالْمُسَمَّنُ مَعًا، وَصَبِيٌّ صَغِيرٌ يَسُوقُهَا.
وَالْبَقَرَةُ وَالدُّبَّةُ تَرْعَيَانِ. تَرْبُضُ أَوْلاَدُهُمَا مَعًا،
وَالأَسَدُ كَالْبَقَرِ يَأْكُلُ تِبْنًا.
وَيَلْعَبُ الرَّضِيعُ عَلَى سَرَبِ الصِّلِّ،
وَيَمُدُّ الْفَطِيمُ يَدَهُ عَلَى جُحْرِ الأُفْعُوَانِ.
لاَ يَسُوؤُونَ وَلاَ يُفْسِدُونَ فِي كُلِّ جَبَلِ قُدْسِي،
لأَنَّ الأَرْضَ تَمْتَلِئُ مِنْ مَعْرِفَةِ الرَّبِّ كَمَا تُغَطِّي الْمِيَاهُ الْبَحْرَ».

هذا هو دينها، هذا ما تتمناه الآن لقبيلتها. إنه المعتقد الذي سيَهَبُ الحياة والسلام للجميع. لذا تمسكت به وهي تصلّي كي يعود واياكي إليها.

وجاء. لم تكن تتوقّعه، لكنها كانت مهيَّأةً له ومسرورة. كم خَشِيَتْ عليه. ربما لهذا وثب قلبها. ربما لهذا أحسّتْ بشيءٍ غريب في أمعائها، يمنحُها السعادة والألم.

نظرت إلى الرَّجُلين المتقابلين. رأتْ حبيبَها يُذَلُّ أمامها. وتنازعت طاعتها لوالدها مع حبها لواياكي. وأخيراً، حينما أدار ظهره رافضاً. نهضت واقفة، وكان صوتها واضحاً وآمراً تقريباً، قالت:

- أستاذ - توقَّفَ واياكي - ارجعْ.

أطاع واياكي. بدا الأمر كما في حلُم، حتى بالنسبة لجوشوا الذي صمت من أثر الصدمة. هل نادته بلقبه حقاً؟ قالت:

- المعلّم لا يكذب.

وصرخ جوشوا:

- أنتِ! أنتِ! كيف يمكنك أن تعرفي ذلك أيتها المتمرِّدة الصغيرة؟

- أعرف. في الأسبوع الماضي طلب كاماو الزواج مِنّي فرفضتُ. قال إنه سيجبرني أو يفعل شيئاً ما سيّئاً، قال إنّي له، وأنه الشخص الوحيد الذي بمقدوره أن ينقذ...

فقاطعها جوشوا مرتعداً غاضباً مزبداً، ولم يدَعْها تُكمل كلامها. واياكي ما يزال في حلم، وما يزال متألمِّاً. غضبٌ متفجِّرٌ يدفعه للخروج من الكوخ. في الخارج سمع صخباً خافتاً. في البدء بدا بعيداً لكنه الآن يستطيع أن يَسمع بضع كلمات... معلِّم... خائن... وسيطر عليه اكتئابٌ ثقيل. أدرك أنه غير مرغوبٍ فيه رغم كلّ ما فعله للتلال. واستعاد في ذاكرته كلمات والده تشيغي: «لكنهم رفضوا موغو». يومها تساءل صوته الفتي الرقيق، فأجاب تشيغي: «دعْهم يفعلون ما يحلو لهم، سيأتي زمنٌ يبكون فيه متوسِّلين مجيء مُخلِّصين». ألمْ يأتِ ذلك الزمن الموعود؟ هل أنّ كابوني هو المخلِّص الذي يتوسّلون إليه؟ وماذا سيفعل؟ إنه يستطيع فقط أن يهدم ما بناه واياكي. كلا، إنه لا يستطيع. من المؤكَّد أنّ هناك روحاً، قلباً، في الأقل تجذَّرت فيه جهود واياكي. والمعلّمون الذين سيأتون قريباً؟ سيواصلون العمل. أصواتٌ تنشدُ وتهتف بالموت تعلو وتعلو. ظنّ أنهم قادمون إلى بيت جوشوا. وعاد إلى الكوخ من أجل مناشدةٍ يائسةٍ أخرى:

- احترسوا، ربّما هم قادمون إلى هنا.

- اخرجْ، اخرجْ من هنا. اغربْ عن وجهي أيُّها الشيطان.

صرخ جوشوا بانفعالٍ راجف. إنه يكره واياكي كراهيةَ الرجل التَّقي

للشيطان. هناك همهمةٌ أخرى في الغرفة. ثم انقطعت، عندها خَطَتْ نيامبورا نحو واياكي بينما كانت كلّ العيون تبصرها. ربما اندهش واياكي وجوشوا معاً بجمالها وشبابها الناضج. أمسكت يد واياكي وقالت ما لم تجرؤ على قوله فتاةٌ في ذلك الوقت، قالت ما لم تستطعْ هي أنْ تقولَه قبل أيام قليلة:

- أنتَ شجاع، وأنا أحبّك.

استيقظ جوشوا من ذهوله. لم يخطر له مرّةً أنّ هذه الفتاة الخانعة، الهادئة، المطيعة، قادرةٌ على القيام بمثل هذا الفعل. اندفع نحوها بعنف. وكان على وشك أن يلقي بيديه حولها عندما أدرك أنّ سلوكه هذا هو غوايةٌ أخرى من الشيطان. كما أن مسيحيّاً مثله يجب أن ينتصر في ساعة الاختبار هذه. وقف واياكي ونيامبورا قربَ الباب.

- بالنسبة لي ولبيتي سنستمر في خدمة المسيح - قال جوشوا وهو يشير إلى نيامبورا بسبابة يده اليمنى - لستِ ابنتي. لكن دعيني أحذّرك - واصل كلامه وقد تغيّر صوتُه فأصبح حزيناً هادئاً بعد أن كان غاضباً منفعلاً - ستنتهين نهايةً مبكرة، اذهبي.

خطا واياكي ونيامبورا كما لو كانا في حلم. كانت الأم ميريامو تنتحب وتقول: «لا تدعْها تذهب، لا تدعْها». بينما ظلّ الآخرون صامتين متسائلين عن اللعنة التي حلّت ببيت جوشوا.

الظلام ما يزال يغطّي الأرض. وفي الأعلى اختفت النجوم ما عدا واحدة أو اثنتين. نيامبورا لم تتمرّد من قبل أبداً، ولا حتى بتروٍّ. إنه أوّل فعلِ تمرّدٍ لها. أدركت تحرُّرَها من قبضة جوشوا. كان هناك نداءان قويّان: نداءُ الصوت الداخلي الذي دفعها، ونداء الأرض التي خارج نطاق جوشوا.

- نيامبورا، أرجوكِ، عودي إلى أهلِك - ناشدَها واياكي حالما ابتعدا عدّة ياردات عن البيت يغمرهُما الظلام. ولم ترجعْ. كانت الأصوات التي تصِمُ واياكي بالخيانة ترنّ في الظلام. تذكّر واياكي ما قالَه كنوثيا، وانتابَه

حافزٌ ضعيف في البدء ثمَّ أخذَ يقوى ويقوى للحدّ الذي أصبحَ نزاعاً حقيقيّاً في روحه. وقال له الصّوتُ الملحّ في أعماقه أنْ يركضَ ويغادر إلى نايروبي. لديك الآن ما يصبو إليه قلبُك، ثم إنهم رفضوك. اركضْ، اركضْ، إلى نايروبي، وعِشْ هناك سعيداً مع نيامبورا. ولِمَ لا؟ ألم يجلب النور إلى التلال؟ ألم يوقظ الأُسود النائمة للحدّ الذي باتت تهتف: «خائن»؟ أحس بالخجل من نفسه. إنه لا يستطيع أن يهرب. ثانية ومضت كلمات والده أمامه: «...الخلاص سيأتي من التلال. يجب أن ينهض رجل وينقذ الناس في ساعة حاجتهم. سوف يريهم الطريق، ويقودهم...».

وقف واياكي ونيامبورا الآن فوق قطعة أرض مرتفعةٍ تطلّ على وادي هونيا. إنهما قرب بيت كابوني. كانت الأصوات تصلهُما. خاف واياكي، وخفتت حدّة عزمه على عدم الهرب. التفت إلى الفتاة التي بجانبه، وبصوتٍ مقهور قال:

- موتٌ ينتظركِ هناك.

أخذتْ يدَه وضغطتْها بحنُوّ، فانبعثتْ حرارةٌ في دمِه، وشعر كما لو أنه محمولٌ فوق أمواج الرغبة والعاطفة التي هزَّت كيانَه كلّه.

- أوه، أستاذ. لقد أحببتُك دائماً، سأذهب حيثما تذهب لا تتركني الآن.

احتضنَها، ثم هبطا تلّ ماكويو ببطء حتى وصلا إلى مكانهما المقدَّس.

- لنجلسْ - همس لها.

واستلقيا فوق العشب.

كان نهرُ هونيا يتدفّق ولم يسمعا ارتعاشاته لأنَّ ارتعاشاتٍ أقوى كانت تتدفَّق في قلبَيهما وتجتاح جسدَيهما. واتّحدت روحاهما في روحٍ واحدة ساكنة لدرجة أن تنفُّسهما بدا لعالم آخر منفصل عنهما.

حين نهضا ليذهبا هبطت على واياكي قوّةٌ جديدة، حتى أن كنوثيا الذي كان قد عاد إلى الكوخ لانتظار واياكي اندهش من رؤية الإشراق الذي كان يعلو وجهيهما أكثر مما اندهش من وجودهما معاً. حقاً شعر

واياكي أن روحه التواقة قد هدأت بحضور الفتاة الشافي. لكنه كان يدرك أنه سوف يجبر على خيار ما، خيار بين الفتاة والقبيلة. هذه الليلة أحس أن لديه شيئاً ما يجب قولُه للناس، غير أنه لا يعرف ما هو. أراد أن يرتاح، أراد وقتاً لأداء استجواب صامت في قلبه. خطرت له صورة والده بقوة. تذكر تلك الرحلة إلى الأَيْكة المقدَّسة. وهتف بصوتٍ عالٍ:

- غداً سأذهب إلى هناك.

- أين؟ - سأل كنوثيا.

ارتجف واياكي لحضور ذلك السؤال. وأحسَّ أنَّه لا يستطيع أن يشرح رحلته حتى إلى كنوثيا. شعر بوجود والده في كلّ زاوية في الغرفة، وفي الظلام في الخارج. كان شعوره حقيقياً كشعوره بوجود نيامبورا التي نامت في سريره. كانت منهكة لكنها تشعر بالاطمئنان.

- إلى التل في جنوب كامينو، إلى الأَيْكة المقدَّسة.

- إلى الأَيْكة المقدَّسة؟

- أجل، إنها قصة طويلة.

ثم تحدّث لكنوثيا عن القصة كلّها، عن رحلته مع أبيه، تشيغي، عن النبوءة القديمة وحيرته في معناها. جلس كنوثيا مندهشاً يغمره إجلالٌ جديد لواياكي. وبدا الأمر كما لو كان واياكي وَحْياً، شيئاً ليس من هذه الأرض.

- انتبه كنوثيا - قال واياكي بعد صمتٍ طويل - قُمْ بشيءٍ ما مِن أجلي. غداً يجب أنْ أتحدَّث للنَّاس قبل الغروب تماماً. إذن، عليكَ أنْ تدعوهم إلى اجتماعٍ عند نهر هونيا، فوق الأرض التي تُقامُ عليها طقوسُ الختان، فالبقعة مسطَّحةٌ هناك. خذْ معك من يساعدك في نشر النبأ في كلّ تلّ. غداً سأحسِم الأمر مع كابوني أمامَ الجميع، لأنّي يا كنوثيا لا أستطيع أن أهرب، أفكارٌ جديدة بدأت تسطع في ذهني، أشياءُ يجب أن أقوم بها وأقولَها. ولكن ثَمَّة أشياءُ أخرى كثيرةٌ أجهلها. لم أكن أدرك

أن الوعي الجديد يتطلب تعبيراً في المستوى السياسي. والتعليم بالنسبة لأناسٍ مضطَهَدين ليس كلَّ شيء. يجب أن أفكّر، يجب أن أكون وحيداً.

واستمرّا يتحدّثان حتى وقتٍ متقدم من الليل، استمع كنوثيا خلالَه إلى خطط واياكي، وشعر أنه متحمّس للمحاولات الجديدة منتشياً ومحمولاً إلى ذرىً جديدة، وصاح:

- لن أتركك أبداً، مهما يفعل الآخرون سأظلّ معك حتى النهاية.

- شكراً لك يا كنوثيا، لننتظرْ يومَ غد.

***

الفصل الخامس والعشرون

هجس واياكي ألماً فاتراً في قلبه. كان مضطرباً، ها هو الريف ينبسط تحت بصره ثانية. لكنه ليس بتلك السطوة التي شعر بها يوم وقف هنا مع والده وهو صبي، كانت الشمس مرتفعة في السماء ولم يتمكن من رؤية جبل كيرنياغا، بدت له الأيكة ليست أكثر من مجرّد دغل عادي متشابك بهيئة عناقيد حول شجرة التين التي أحاطها شيء ما غريب. كانت ما تزال ضخمة شامخةً تتحدَّى الزمن، بدتْ هكذا فعلاً، تزدري تغيّرات الطقس، وتساءل: كم من الناس جاؤوا قبله ووقفوا في المكان ذاته؟ كم من الناس جاؤوا وقدموا النذور إلى هذه الشجرة، رمز إيمانهم بقوة غامضة تحكم الكون ومصائر البشر؟

وأحسّ واياكي بذلك الغموض يحيطه تدريجياً. كان يأتيه من الظلام الذي يخيم على قلبه، يأتيه حيثما كان في وحدته يصارع قوى غريبة، قوى بدت وكأنها تحطمه. تساءل عن سبب مجيئه، عن الأجوبة التي كان يأمل الحصول عليها، أجوبة لأسئلة لم تتشكل في ذهنه بعد، حتى نيامبورا كانت تتلاشى من الواقع المحيط به، ولم تعد عزاءً له، ذلك أن الواقع المحيط به، المحيط بقلبه، كان باعثاً على اليأس، لأنه كان مدركاً أنه يقاتل ضد قوىً لا يفهمها هو نفسه، قوىً شعر بها في فضاء الريف كله. كان خائفاً. ربما كان يهرب مِن الذي لم يفهمه بسبب خشيته منه، ماذا أيقظ في التلال؟ وتذكَّر ما قاله كنوثيا له: اسمك سيحطّمك.

حدّق في الأرض الممتدة تحت بصره، ركز عينيه كمن لم ير شيئاً،

كان هناك صخب غريب يكمن في هدوء التلال، ما الذي جلب كل هذا الاضطراب؟ لام نفسه، شعر أن الأمور قد بدأت تسوء فعلاً منذ الاجتماع الكبير، منذ الوقت الذي أعلنه الجميع فيه معلّماً. منذ ذلك الحين اتسع الشقاق بين الفصائل المختلفة، وما محاولة أعضاء مجلس القرية في حرق البيوت، وتهديدهم لجوشوا وأتباعه إلا تعبيرٌ عن تلك الهوّة التي تفصل بينهم، ربما كان عليه ألّا يستقيل من المجلس، حدّث نفسه كثيراً في هذا الأمر، ماذا لو أعلن موقفاً واضحاً في ذلك الاجتماع؟ لقد سنحت الفرصة وضاعت، وعليه الآن أن يهتم بالحاضر، إنه ما يزال يتساءل عما إذا خان القبيلة أو أخلص لها، القبيلة التي صمَّم على توحيدها، القبيلة التي أراد إنقاذَها، والناس الذين أراد لهم أن يتعلّموا، أن يمنحهم كلّ منافع مجيء الرجل الأبيض.

كان واياكي يعتقد أن عادات الرجل الأبيض ليست سيئة كلها، حتى دينه لم يكن سيئاً في الجوهر. فثمة بعض الخير، وبعض الصدق يشعّان منه، لكن الدِّين كان بحاجةٍ إلى أن يُنَقَّى من الأدران، والذي يبقى فهو السرمديّ فيه، ذلك السرمديّ هو الحقيقة التي يجب أن تتوافق مع تقاليد الناس. فالتقاليد لا يمكن إلغاؤها بين ليلة وضحاها. الإلغاء يعني تحطيم جذور القبيلة، تلك الجذور الكامنة في التقاليد والممتدّة إلى ماضٍ بعيد، إلى البدايات الأولى، إلى غيكويو ومومبي. فالدين الذي لا يأخذ بعين الاعتبار طريقةَ حياة الناس، الذي لا يعترف بمواقع الحقائق والجمال في عاداتهم هو دينٌ لا فائدة منه. دينٌ لن يكون مقنعاً، لن يكون ممارسةً مَعيشة، لن يكون مصدر حياة وحيوية. دينٌ سيبتر روحَ الإنسان فقط، ويجعله متشبثاً باطمئنانٍ موعود بشكلٍ متعصّب. وإن لم يكن كذلك فسيضيع، ربما كان ذلك هو الخطأ الكامن في جوشوا. لقد ارتدى ثياباً دينية مزيّنة، مكسوّة بالبياض، تنكّر لماضيه، واستأصل نفسَه من تقاليد القبيلة الواهبة للحياة. ولأنه لم يتبقَّ لديه شيء ما يستند إليه، شيء ما غني وثابت يقف عليه وينمو، كان عليه أن يتشبّث بيديه بكل ما لقّنه إياه المبشرون عن المستقبل الموعود.

تساءل واياكي عمّا إذا كان هو الشخص المناسب أم كابوني! من منهما المسيح؟ من منهما الذي يجلب الأمل في الخلاص إلى أناسٍ مضطربين؟ لكن كيف يمكن لرجلٍ أن يكون مخلِّصاً وهو فاقدٌ صلتَه مع الماضي؟

موثوني حاولت من قبل. بحثَتْ عن الخلاص لنفسها. امتلكت الشجاعة وسعت للقيام بمصالحة بين قوىً عديدة ودّت السيطرة عليها، لقد أدركت حاجتها، حاجتها لامتلاك حياةٍ جميلة نافعة، تغنيك وتنمّيك. تشيغي حاول أيضاً لتسويةٍ بين طريقَتَي حياة، ولكن ليس في نفسه، إنما في نفس ابنه، وكان واياكي نتاجاً لتلك المحاولة، أجل، من خلال سكون التلال أدرك واياكي أشياء كثيرة، ختان النسوة لم يكن مهمّاً بحدّ ذاته كعمليّة جسدية، إنما المهمّ ما يُحدِثُه من أثرٍ في الرُّوح. إنها العادة التي لا يمكن إلغاؤها بين يوم وليلة. الصبر، وبالدرجة الأولى التعليم هو ما نحتاج إليه. فإذا جعلك دين الرجل الأبيض تهجر عادةً ما ولم يعطِك بديلاً عنها بقيمةٍ مساوية ستضيع. وإنَّ أيّة محاولةٍ لحلّ النزاع ستقتلك أنت فقط مثلما قتلتْ موثوني.

انتبه واياكي إلى أنّ وقت العودة قد حان. ولم تُضِئ الأَيكة المقدسة الطريق أمامه. ولم يكن يعرف تماماً إلى أين هو ذاهب، أو ما الذي يريد قوله للناس. إنه ما يزال في الظلام. تذكّر نيامبورا. إنها في كوخه. وتساءل عمّا تفكر به. وللحظةٍ انتابه هلعٌ مفاجئ. ومقتَ نفسه لأنه ترك الكوخ. ماذا لو جاؤوا وأخذوها بالقوة؟ ماذا لو أن جوشوا ذهب وأخبر المخفر الحكومي عنه؟ ثانية تساءل عن الهرب. ثم وهو يهبط التل نظر إلى الخلف. فتخيَّل فرصاً وإمكانيات عديدة هناك، بعيداً في التلال، في الماوراء. ربما سيذهب يوماً ما. ربما سينضم إلى رجال من مورانغا، وكيامبو، ونييري. وبصوت واحد سيقولون للرجل الأبيض: «اخرجْ من أرضنا». تلك اللحظة بالضبط أدرك ما تريده التلال. تلك اللحظة شعر أنه أكثرُ فاعلية مما كان يشعر قبل العار الذي لَحِقَ بالناس بسبب استيلاء البيض على أرضهم. عارُ إجبارِهم

على العمل في أراضيهم من أجل البيض، وإذلالِ الضرائب التي يدفعونها للحكومة التي لا يعرفون عنها شيئاً.

أجل. مجلس القرية كان على حقّ. فالناس يريدون فعلاً فورياً. والغليان في التلال هو يقظتها إزاء العار والإذلال. لقد انتهكت عزلتهم. لكن ما الفعل الذي يحتاجون إليه؟ ماذا عليه أن يفعل الآن؟ كيف يمكنه تنظيم الناس في منظمة سياسية وهم ممزَّقون بالنزاعات والانقسامات؟ الآن أدرَكَ ما سيقوله لهم عندما تؤاتيه فرصةٌ أخرى: التعليم من أجل الوحدة. والوحدة من أجل الحرّية السياسية. وفي الحال ملأ هذا التصوُّر قلبه بالرجاء والأمل الجديد. أسرع في هبوطه التلّ راغباً في الوصول إلى الناس كي ينقل لهم تصوّره الجديد: التعليم، الوحدة، الحرّية السياسية. ثم جاءه الشكّ. ماذا لو طلبوا منه أن يهجر نيامبورا؟ ماذا لو... ولم يرغب في التفكير بذلك. سوف يقاتل من أجل الوحدة. وستكون نيامبورا جزءاً مكمّلاً لتلك المعركة. فإذا ضيّعَ نيامبورا سيضيع هو أيضاً. إنه يقاتل من أجل خلاصه.

جاء إلى مكان الاجتماع أناسٌ كثيرون. نساءٌ وأطفال وشيوخ. كانوا مرتبكين بسبب النداء المُلِحّ الذي بلَّغهم به كنوثيا. ثم إنهم جاؤوا لأنهم أرادوا الاستماع إلى ما سيقوله لهم معلِّمهم، ولأنهم سمعوا أشياءَ لا يمكن تصديقها. ثَمَّة أناسٌ ما زالوا متشبّثين بصورة المعلم الذي يعرفونه، المعلّم الذي وثقوا وآمنوا به، الرجل الذي باستطاعتهم أن يتبعوه دائماً، وفي كل مكان. كيف يمكنهم تصديق خيانته لهم؟ كيف يمكنهم تصديق حكاية زواجه من فتاة ليست مختونة، ابنة جوشوا، عدو الناس؟ لقد نبههم واياكي إلى تصورات جديدة، إلى رغبات جديدة، إلى طموحات جديدة. أعاد إليهم كرامتهم كقبيلة، ومنحهم ثقافة الرجل الأبيض عندما أراد المبشرون نفي المعرفة عنهم. كان واياكي مُرضياً بالنسبة لهم. أدى قسَمَ الولاء من أجل نقاء القبيلة، فكان مَثَلاً للجميع. أمِنَ المعقول أنْ يعمل ضدَّ قَسَمِه؟ أبمقدورِه فعلُ ذلك؟ انتظروا، كانت الشمس تلقي أشعَّتَها الحارّة فوق رؤوسهم العارية، فينساب العرق على ظهورهم.

ومع ذلك ظلّوا ينتظرون. كان هناك كابوني، ورجال المجلس الأكبر سناً، وشبابُ القبيلة. كلّهم ينتظرون، ينتظرون مجيء واياكي. احتفظوا بأفكارهم وتطلّعوا إلى وصوله مدركين أنّ ذلك اليوم هو يومُ المحاكمة.

غداً سيكون طقس الختان. وسيتم فوق أرض الاجتماع بالذات. لذا ستكون هذه الليلة ليلة رقص وغناء. وسوف ينشد جوشوا وأتباعه تراتيلهم للمسيح الذي سيولد هذه الليلة. الآن، في الاجتماع، لا أحد يغنّي، لا أحدَ يرقص. إنهم ينتظرون ليسمعوا ما سيقوله لهم معلّمهم.

جلس كابوني وبعضُ الرجال الأكبر سنّاً في مجموعة منفصلة عن الآخرين، مرتجفين بمعرفتهم السرّية. فلينتظر الناس. لقد صمَّم كابوني على الانتصار أو الموت. إذ اعتقدَ أنّ انتصاره انتصارٌ للقبيلة، القبيلة التي يهدِّدها واياكي الآن. إنه يكره واياكي بقوة، ويقابل هذه الكراهية بعقاب القبيلة ضد الرِّجْسِ والخيانة. ولا يعني هذا بالنسبة له صراعاً شخصياً، بل استمراراً لذلك الصراع القائم بين ماكويو وكامينو منذ أمد بعيد. ولأن القادة المنحدرين من تل كامينو أخفقوا في تحقيق شيء للقبيلة، ولأنهم خانوها فقط فإن التلال ستنهض وتصرخ مطالبة بالثأر. وكابوني يعتقد أنه وسيلة ذلك الثأر. إنه المنقذ الذي ينتظره الناس. غير أنه هو نفسه لا يعرف بالضبط إلى أين سيقودهم. لأنه هو أيضاً كان متشبثاً بقوة يقظة بين الناس. كيف له أن يعرف أنهم لا يريدون العودة إلى الوراء؟ كيف له أن يعرف أن التلال لم تعد راغبة في عزلتها؟ كيف له أن يعرف أن تلك القوى التي تدفع الناس إلى التطلع إلى غد أفضل، والتي تمنحهم الآن وعياً جديداً كانت تشبه الشياطين، مكتسحة الريف كله من البحر إلى النهر كما قال موغو.

كانت الشمس تهبط نحو الأفق. وكان الناس قلقين، ونافدي الصبر. وقف بعضهم فوق التل. ومع هؤلاء كان جوشوا وأتباعه. إنهم لم ينزلوا بعد. كانت ميريامو هناك. اعتقدت هي الأخرى أن شيئاً ما سيحدث. بكت على ابنتها. وبكت لإدراكها الضعف في نفسها، وعدم قدرتها على

فعل أي شيء. فجأة رأى الواقفون على التلال أو على المنحدر لهباً كبيراً أصفر. ينبثق من الشمس الغاربة. بدا اللهب قريباً وبعيداً معاً وكأنه يحتوي الشجر والريف كله. وارتعب الناس من الخوف.

خاف كنوثياً أيضاً. ولوهلة قصيرة، وبنظرة خاطفة لمح واياكي ونيامبورا عالقَين في اللّهب. صرخ، ولام نفسه لإحساسه بأنه أهمل واياكي. لقد سرقوا نيامبورا من كوخ واياكي، وكنوثيا يعلم بذلك. إنها الآن بين يدي كابوني ومجلس القرية. كيف يمكنه إخبار واياكي؟ وكيف سيستقبل النبأ؟ وقرَّر أن يتركه يواجه الحشد، ويقاتل دون أن يقلقه بخوفه على نيامبورا. ثم، ومن مكان ما أخذ الناس يهتفون: «لقد اختفى الخائن». ارتجف كنوثيا، واضطرب لعدم حضور واياكي، فغيابه يعرّض حياة كنوثيا للخطر. إذ إنّ عقابهم سيتّجه إليه. عرق جسده من الخوف وهو يسمع صياح الناس «فتِّشوا عنه». وكان كابوني وأتباعُه يهتفون بكلمة «خائن».

كان الحشدُ كبيراً. وكان الناس يتوافدون. ثم سُمِعَ همسٌ جعل الجميع ينهضون بتلهّف: «المعلم! المعلم!». فجلسوا تاركين واياكي يمر. كان رأسه وكتفاه العريضتان تلامس الأشعة الصفراء المارّة عبر الأشجار. وبدا مؤثّراً وجميلاً. كان الناس متوتّرين على جانبي نهر هونيا. وهبط على الأرض صمتٌ شامل عندما خطا واياكي نحو البقعة المرتفعة، قرب أعضاء مجلس القرية، حيث سيتقرّر مصيره.

***

الفصل السادس والعشرون

حتى وياكي كان متأثّراً بالصمت الشامل الذي هبط على الأرض. لذا كان بمقدوره أن يسمع نبض قلبه. قال لنفسه: يجب ألّا أخاف. ثم وقف فوق بقعة الأرض المرتفعة. ونظر إلى الناس، إلى وجوههم وعيونهم المترقبة. سيأتي الخلاص من التلال. ورأى أناساً كثيرين توافدوا وملؤوا الأرض التي يقام عليها طقس الختان، كما ملؤوا منحدرات التلال، وثَمَّة من تسلق الأشجار. سيظهر رجل ويخلِّص الناس في ساعة حاجتهم. وتذكر والده تشيغي، موغو واكيبيرو. واتشيوري، كاميري، وغيكويو ومومبي. تذكر جبل كيرنياغا كما رآه مع أبيه في ذلك اليوم العظيم. سأرفع بصري إلى التلال، إلى المكان الذي تأتي منه النجدة. وتضرَّعَ كي يذهب عنه ذلك الخوف البارد الذي استقر في أحشائه. وبدا كامينو وماكويو يحدِّقان فيه، متهيِّئَين للانقضاض عليه. سيريهم الطريق، سيقودهم، وعلى الفور أدرك واياكي أنّ الساعة قد حانت، ساعةُ الحاجة العظيمة. فالقبيلة تحتاجه الآن، ونيامبورا تحتاجه الآن، وهو يحتاج نفسَه أيضاً. كابوني عنصرٌ مخرِّب، لا يعرف الطريق. أما واياكي فعلى استعداد لأن يمشي مع الناس، ويتحسَّس معهَم في الظلام مفتِّشاً عن النور، عن الطريق. وتذكّر أن بقعة الأرض التي يقف عليها هي البقعة ذاتها التي أراقَ دمَه عليها.

وهذا قَسَمٌ أيضاً. وأحسّ أنه مستعدٌّ للدفاع عن تلك الأرض. وأخذ يتكلّم. في البداية وجّه خطاباً قصيراً، شكر فيه الناس على مجيئهم.

وطلب منهم أن يصغوا إليه باهتمام. كان مصعوقاً بالتطورات الأخيرة التي حدثت في التلال: الكراهية والمنافسة سوف تحطّمان الناس. حدد نضالاته التي يسعى إليها خدمةً لهم، خاصّة في هذه السنة المنتهية، السنة التي شهدت تحولاً في التلال، السنة التي أيقظت الأُسُود النائمة. حدثهم عن محاولاته لجلب المزيد من المعلمين، تلك المهمة التي نجح فيها رغم صعوبتها. لكنه حين عاد اتهمه مجلس القرية بالخيانة. أناس – قال واياكي – خرجوا في الليل وهتفوا بخيانته. فليقف هؤلاء الآن ويتّهموه علناً. وإذا كان قد أساء إلى التلال فالناس تعرف كيف تتصرف معه.

«المعلم»، هتفت بعض الأصوات احتفاءً بخطابه القصير. وصاح بعضهم الآخر بنبرة استحسان «المعلم على حق»، دون أن يعرفوا لماذا كان على حقّ. صرخ آخرون «ليتقدم كابوني». ونهض بوقار، فمعركته الناقصة تبدأ الآن.

فيما مضى كان كابوني واحداً من أتباع جوشوا. أما الآن فهو مسؤول مجلس القرية ويعيش في تل ماكويو. تكلم بهيئة من يعرف أشياء سرّية، شرّيرة وخيّرة في قلوب الناس في الريف. كان اتّهامه الكبير هو أنّ واياكي ليس طاهراً، إنه نَجِس، وإذا استمرَّ في تعليم الناس فسيكونون في الظلام بدلاً من النور. عندما ماتتْ فتاةٌ تُدعى موثوني بسبب أرواح شرِّيرة زارتْها، أخذها واياكي إلى مستشفى الرجل الأبيض في سيريانا ولم يتطهَّر. ولمَّا كان قائداً فإنَّ نجاسَتَه سوف تنتقل إلى القبيلة. وعلى القبيلة أن تتّخذَ إجراءً ما بحقّه، لأنّ خطَرَه أكبرُ ممّا يتصوّر الناس. إنه متحالفٌ مع الرجل الأبيض الذي جلب ديناً مبهماً لإسكات الناس في الوقت الذي كانت فيه أراضيهم يغتصبُها أخوةٌ لهم. والضرائب؟ مَن لا يشكو من الضرائب الثقيلة المفروضة على الرجال والنساء؟ ثم وصف عدّة رحلاتٍ سرّية قام بها واياكي إلى سيريانا تحت ذريعة جلب المزيد من المعلمين. وحين أعلن مجلس القرية أنّ على الناس إشهارَ السلاح بوجه المخفر الحكومي (إنه مخفرٌ صغير جداً، ومن السهل احتلاله)

عارض واياكي الفكرة، وقال: «التعليم! التعليم!»، هل يعيد إلينا التعليم أرضنا المغتصبة؟ ليجيب هو بنفسه. وجلس.

لاحظ واياكي أن كابوني تجنَّب باحتراس أيّة إشارة إلى جوشوا أو نيامبورا. لماذا؟ وفكّر أنه هو أيضاً سوف يتجنّب الإشارة إلى اسم نيامبورا، وسيتحدّث عن الوحدة. ها هي فرصته، ولن يحصل على واحدةٍ أخرى أبداً.

استقبل الناسُ خطاب كابوني بصمتٍ ثقيل، ثم بهمهمة. وكانت الشمسُ تغرب ببطء.

ثم تحدَّث واياكي بصوتٍ هادئ، مؤثّر. التمعت عيناه، وأثير غضبٍ ما في أعماقه، إذ أدرك بما لا يقبل الشك أن كابوني مصمِّمٌ على رؤيته حطاماً. «ماذا يريد كابوني؟»، سأل، «من الذي اتبع الرجل الأبيض أولاً، واعتنق المعتقد الجديد؟ من خان القبيلة عندما كان بمقدور ماكويو وكامينو والتلال الأخرى إشهار السلاح بوجه الرجل الأبيض؟».

استدار نحو الناس، وبكلمات بسيطة ذكّرهم بتاريخهم: «في الزمن الغابر، في البدايات، أنشأ الخالق مورنغو، غيكويو وزوجته مومبي: أبو وأمّ القبيلة. أوقَفَهما فوق الأرض المقدَّسة، على قمّة جبل كيرنياغا، وأراهما الأرض كلها، لا شك أنّكم تتذكّرون ما بشَّرَهما به، تلك البشرى العظيمة التي وهبها لأجدادنا: (هذه الأرض أمنحُها لكما، أيّها الرجل، أيّتها المرأة، إنها لكما لتفلحوها أنتما وذُرِّيَّتكما). كانت أرضاً خصبة، تُنبِت كلّ أنواع الفاكهة، وكان العسلُ فيها وفيراً. وحين جلبهما إلى كامينو استمرّا برؤية جمال الأرض. كانا سعيدين، وبرضاهما اتّبعا مورنغو إلى موكوروي واغاتانغا، حيث أبقاهما هناك. والآن نحن، سليلي بنات غيكويو ومومبي التِّسع، ممزَّقون بالنزاعات والانقسامات».

تكلَّم عن أبطال القبيلة العظام، أشار إلى ديمي وماثاثي، واتشيوري، موغووا كيبيرو، وكاميري. حدثهم عن الانتصارات التي حقّقها أولئك الأبطال على قبيلة ماساي والقبائل المعادية الأخرى: «لأن التلال كانت

موحَّدة، كانت تلك الانتصارات ممكنة. لقد وقف الناس معاً في ساحة الحاجة، مانحاً واحدُهم الآخرَ دفءَ الاقتراب وحيويّة الدّم». ذكّرهم بموغو واكيبيرو ونبوءته القائلة بأنّ «أناساً سيأتون بملابس كالفراشات»، وتابع واياكي: «ولكن الناس رفضوه، وحين جاء الرّجل الأبيض نشبَ الحسد بين كامينو وماكويو، ولم تتحدوا، بل تركتم الرجل الأبيض وحده. الآن، بدلاً من أن نتعلم عاداته، بدلاً من أن نتحد للحدّ الذي يمكّننا من طردِه نرى كابوني وآخرين ينادون بالثأر من جوشوا وأتباعه. هذا ما ودِدْتُ أن أخبركم به. كلنا أبناء مومبي، ويجب أن نقاتل معاً في حركةٍ سياسيّة واحدة، وإلا سننتهي وسيظلّ الرجل الأبيض معتلياً ظهورنا دائماً، أبمقدور البيت الواحد أن ينقسم ضدَّ نفسِه؟». «كلا»، أجابوا بانسجام. «إذن، يجب أن نقف معاً، يجب أن نضع حداً للتنافس القديم».

بدا الإنسُ متأثّرين. جلسَ واياكي، فنهضوا، وكما لو كانوا صوتاً واحداً هتفوا: «المعلم! المعلم!». وحين وقف كابوني ليتكلم همّوا بالهجوم عليه كما لو كانوا مدفوعين بالرغبة في تمزيقه إلى أجزاء صغيرة. كانوا سيقدمون على ذلك، وينهون التهديدات المحيطة بمعلّمهم لولا واياكي الذي أوقفهم «لا، لا، لا تلمسوه».

بدا واياكي في تلك اللحظة كأنه أدرك أن كابوني ومجلس القرية كانوا في طريقهم إلى التعبير عن شيء كانت القبيلة تشعر به وترغب فيه.

استمعوا إلى معلمهم، إلى منقذهم، كأنهم يودّون القول: لن نتخلى عنك أبداً، وفكر كنوثيا بأنّ يشقّ طريقه نحو واياكي وينبّهه، لكن خوفاً كبيراً سيطر عليه، وأضعف ركبتيه لدرجة لم يتحرّك من المكان الذي يجلس فيه. وبدلاً من ذلك سعى إلى إخفاء نفسه بين الحشد كأنه لا يرغب في أن يُصنّف مع مجموعة المعلّم. كان واياكي مندهشاً من امتلاكه لمثل ذلك التأثير على الناس. حتى أنه لم يصغِ إلى ما كان يقوله كابوني حول الانفصال عن البعثة التبشيرية، وعن النقاء. لكنه انتبه فقط عندما ذكر كابوني شيئاً عن القَسَم. لحظتها اكتشف أن الجميع كانوا

منتبهين إلى كابوني الذي أخذ يتحدّث بصوتٍ منكسر، مليء بالحزن. الحنث بالقَسَم يعتبر من أكبر الجرائم التي يرتكبها إنسان ما. إنسان كهذا يحكم عليه بالهلاك.

كان الناس يعلمون أن واياكي أدّى يمين الولاء الذي أقرّه مجلس القرية، والذي يعني عدم إفساد القبيلة بالنجاسة، وعدم إفشاء أسرار المجلس التي تتضمن المصير السياسي للتلال. لذا عندما قال كابوني إن واياكي قد حنث بالقَسَم صاح الناس بصوت غاضب «كلا، كلا». كيف يمكنهم تصديق ذلك؟ كيف يمكنهم تصديق أن واياكي متحالف مع جوشوا لتخريب التلال؟ وصاحوا ثانية: «كلا، كلا». تذكر واياكي نيامبورا التي في الكوخ. وشعر بالخوف، ودّ لو يعود ويرى إن كانت بأمان أو لا. ثم تساءل عن كنوثيا الذي لم يره في الاجتماع. ربما ظل مع نيامبورا. وأحس واياكي بالارتياح. ثم سمع كلمات كابوني:

- أستطيع أن أثبت لكم دون أية شكوك أنه من رجال جوشوا رغم أدائه قَسَم الولاء.

وصاحوا:

- أثبتْ لنا، أثبتْ لنا.

انتظر حتى يسود الهدوء، وقال:

- إنه متزوِّجٌ من ابنة جوشوا.

وحلَّ صمتٌ شامل آخر على الأرض قبل أن يصرخوا:

- كلا، كلا. ليس المعلم.

ارتجفَ واياكي قليلاً، وانتظرَ خائفاً دون أن يعرف سبب خوفه. أراد أن ينهض ويكلّم الناس عن نيامبورا، وكيف ذهب لإنقاذها لكنّ ساقيه لم تسعفاه عندما رأى نيامبورا في الشفق الكثيف يقودُها كاماو وشابّان آخران. «فلينْكِرْها»، رمى كابوني تحدّيه الذي وثبَ فجأةً إلى آذان الناس، إلى ماكويو وكامينو، إلى الأشجار المنتظرة الصابرة، إلى الطيور التي لم

تطلق أيّ صوت. ونهر هونيا كان يجري متدفّقاً عبر وادي الحياة، مرتعشاً ومهمهماً بأغنية مجهولة:

«لاَ يَسُوؤُونَ وَلاَ يُفْسِدُونَ فِي كُلِّ جَبَلِ قُدْسِي،
لأَنَّ الأَرْضَ تَمْتَلِئُ مِنْ مَعْرِفَةِ الرَّبِّ كَمَا تُغَطِّي الْمِيَاهُ الْبَحْرَ».

وصرخ الناس كما لو كانوا يحذّرون معلّمهم: «القَسَم، القَسَم». نهض واياكي. التقت عيناه بعيني نيامبورا. وتذكّر يوم رآها فوق هذه الأرض وهي تصلّي وحدَها. تلك كانت المرّة الأولى التي يحتضنُها فيها. الآن، بدتْ له جميلة، بدت مثل حَمَل على مذبح القرابين. وأدرك أنه لا يستطيع أن ينكِرَها، لا يستطيع أن يتخلّى عن حبّه لها.

رانَ صمتٌ طويل، استرجع الناس خلال أنفاسهم. وفكّر واياكي بتهيئة خطاب. ثم ابتعدت الفكرة عن ذهنه فجأة. وبدلاً منها سمع تحدي كابوني فقط. كيف يمكنه أن ينكرها الآن؟ كيف؟ أخذ ذراعيها. تلا ذلك صمت ثقيل الوطأة. شعرت نيامبورا بالدفء والاطمئنان اللذين بدَّدا شكوكها. كان ذلك تعويضاً عن معاناتها في ذلك اليوم. كيف استطاعت أن تشكّ بالمعلم؟ حتى واياكي شعر بقوة جديدة أزاحت استغراقه المؤلم في السبب الذي دفعَه لأداء القَسَم. لكن القَسَم لا يشترط عليه ألّا يحبّ. هذا ما أراد قولَه للناس. وعندما حاول أن يفتح فمَه صرخت امرأةٌ: «القَسَم!». ثم انتقلت الصرخة إلى أناس آخرين كأنها متنفَّسٌ عن المشاعر التي أثقلتهم. كيف يخونهم معلّمهم؟ كيف يعمل من أجل الوحدة ونقاء القبيلة ويتزوَّج من فتاةٍ ليست مختونة؟ كيف يفعل ذلك بهم؟

حاول واياكي أن يسكتهم لكنهم لم يستمعوا إليه. كانوا يصرخون بكلمة «القَسَم» فقط. وكان صراخهم يتردّد صداه في الغابة. كيف يمكنه أن يخبرهم بأنه لم يخنْهم؟ لكن ليس هذا ما يعنيه بالوحدة. إنه لم يتحالف مع جوشوا. كيف يستطيع أن يخبرهم بأنّه ينوي خدمة التلال، بأنه يعتزم قيادتَهم في حركة سياسية سوف تهزّ الريف كلّه، وتقول للرجل الأبيض «اخرجْ من ديارنا»؟ تطلَّع في عمق الحشد فرأى الأطفال الذين ساعدَهم

في امتلاك التعليم، والمعلّمين الذين جاؤوا. وكنوثيا... وتساءل «أين كنوثيا؟»، ثمّ ساوره شكّ، شكٌّ هزّه لدقائق قليلة من صمت محتضر. هل خانه كنوثيا؟ هل كان متحالفاً مع كابوني؟

ونهض أحد الرجال الأكبر سناً - لم يتمكّن واياكي من سماع ما قاله إذ كان ذهنُه مزدحماً بالأفكار والشكوك التي كانت تأتي وتختفي. «واياكي ونيامبورا سيُترَكان بأيدي مجلس القرية الذي سيحاكمهما، ويقرّر ما يفعل بهما، فذلك أفضل ما يمكن القيام به». وردَّد الحشد: «نعم»، كأنّ عبء محاكمة معلّمهم قد أزيح عنهم. ومضوا مسرعين، فرحين لاكتشافهم بأنه كان مختبئاً في الظلام. ومضوا مسرعين لأنهم لم يرغبوا بإلقاء نظرة على المعلّم، أو أن يقرؤوا الذنب في وجوه بعضهم، ولم يوّدوا الحديث فيما بينهم، إذْ كانوا يدركون تمامَ الإدراك ما فعلوه به، لكنهم لم يرغبوا في معرفة ذلك.

كانت الأرض صامتة، والسلسلتان المتقابلتان مختبئتَين في الظلام، ونهر هونيا يجري متدفّقاً بينهما في الأسفل عبر وادي الحياة، ويرتفع نبضُه فوق سكون الظلام، ليصل إلى قلوب الناس في ماكويو وكامينو.

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

المحتويات

عن الروائي والرواية 5
الفصل الأول 7
الفصل الثاني..... 11
الفصل الثالث..... 19
الفصل الرابع..... 23
الفصل الخامس..... 27
الفصل السادس..... 33
الفصل السابع..... 39
الفصل الثامن 45
الفصل التاسع..... 51
الفصل العاشر 61
الفصل الحادي عشر 69
الفصل الثاني عشر 75
الفصل الثالث عشر 79
الفصل الرابع عشر 87
الفصل الخامس عشر 91
الفصل السادس عشر..... 99
الفصل السابع عشر 107

الفصل الثامن عشر.....115
الفصل التاسع عشر 125
الفصل العشرون.....137
الفصل الحادي والعشرون 143
الفصل الثاني والعشرون 147
الفصل الثالث والعشرون.....155
الفصل الرابع والعشرون 163
الفصل الخامس والعشرون 175
الفصل السادس والعشرون.....181

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

يسعدنا انضمامكم إلى قناة
مكتبة ياسمين
معكم نكبر ونستمر بكل جديد

اضغط هنا .. اتبع اللينك